مجلة دورية فكرية ثقافية أدبية جامعة السنة الخامسة - العدد 17/ 18 - خريف/شتاء 2021

السعر: 3 د.ت / 5 أورو / 6 $

المصير

Al-Massir.tn

المدير المسؤول: د.خالد شوكات

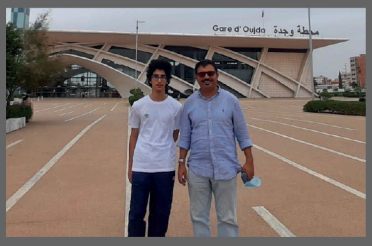

رحلة مستعادة: قبل 35 عاما من وجدة إلى طنجة

محمد فاضل الجمالي.. سياسي من زمن التفكير

أعلام التجديد الشعري في العراق وتونس خلال العهد الملكي (1920 - 1958)

المصير السنة الخامسة - العدد 17/ 18 - خريف/ شتاء 2021

المعهد العربي للديمقراطية

دورات تكوينية في التحكيم
وفض النزاعات البلدية
2022 / 2021

الشمال الشرقي، الشمال الغربي،
الوسط الشرقي، الوسط الغربي
الجنوب الشرقي، الجنوب الغربي

موجهة لرؤساء البلديات، المستشارين البلديين،
الفاعلين المحليين

للمشاركة:
ارسال طلب الى ادارة المعهد:
aid.tunisia.contact@gmail.com
www.aidtunisia.com

شروط النشر في المجلة

» ترسل المقالات إلى رئيس تحرير المجلة.

» تكتب المقـالات باللغة العربية، ترقن أو تكتب بخط واضح، وتوجه عبر البريد الإلكتروني أو صندوق البريد، ويشترط إرفاقها بما يلي:

- تعهد خطي من صاحبها بعدم نشر المادة سابقا في أي مجلة أخرى.
- ملخص من السيرة الذاتية للكاتب أو المترجم.
- الأصل الأجنبي للمادة إن كانت مترجمة من لغة أخرى.

» يفضـل أن تكـون المـواد مدعمـة بصـور عاليـة الجـودة وبيانات وتعليقات واضحة عليها.

» المواد غير المنشورة لا تعيدها المجلة لأصحابها.

» يفضـل أن لا يقل عدد كلمات المادة المرسـلة عـن المائتين وأن لا تزيد عن الألف.

» لا يجوز إعادة نشر المواد المنشورة في المصير إلا بموافقة مسبقة من إدارتها.

» يحق لإدارة تحرير المجلة إحداث المراجعات التحريرية اللازمة على المواد المزمع نشـرها، من حذف وتعديل وإضافـة، دون الرجوع إلى كاتبها، وبما يتفق مع الخط التحريري للمجلة ولا يمس من جوهرها.

لجميع مراسلاتكم:
almasir2017@gmail.com

تعبر المواد المنشورة في المجلة عن آراء كتابها فقط وهم من يتحملون الحقوق الفكرية المترتبة للغير.

المصير

مجلة دورية فكرية
ثقافية أدبية جامعة
تصدر من تونس

المدير المسؤول ورئيس التحرير
د. خالد شوكات

مستشار التحرير:
عبد السلام لصيلع

المدير الفني:
أيمن حسني

سكريتير التحرير:
سناء (مدللة) بنضو

ر.د.م.ك I.S.S.N 2724-6922

المنتج المنفذ: المعهد العربي للديمقراطية

المنتج: الجامعة الخضراء

تصميم:Sweet-MediaNet
hosnicom22@gmail.com
00216.58.269.910

العنوان: 129 شارع الحرية
تونس 1002
الهاتف- الفاكس: 0021671893249
الجوال: 0021653776077
الموقع الإلكتروني: Al-Massir.com

محتوى العدد

ملف العدد

محمد فاضل الجمالي..
سياسي من زمن التفكير

• للوفاء والذكرى: مساهمة الدكتور فاضل الجمالي في الدفاع عن القضية التونسية

•بين محمد فاضل الجمالي والحبيب بورقيبة وعلي البلهوان

• فاضل الجمالي، من عمالقة تاريخنا العربي الحديث

المعهد العربي للديمقراطية خلال الثلاثي الاخير من 2021
فض النزاعات البلدية والقيادة المدنية وإحياء اللحظة الأندلسية

هـذه مجلتـكم سـاهمـوا فـي تحـريـرهـا.. وتنتظر مقالاتكم وإبداعاتكم لنشرها..وإصداراتكم الجديدة للتعريف بها..

almasir2017@gmail.com

- ص04 • الإفتتاحية: **محمد فاضل الجمالي.. سياسي من زمن التفكير**
- ص06 • الملف: **الدكتور محمد فاضل الجمالي**
- ص08 • أ. حمادي الساحلي: **مساهمة فاضل الجمالي في الدفاع عن القضية التونسية**
- ص12 • د. أحمد الطويلي: **بين محمد فاضل الجمالي والحبيب بورقيبة وعلي البلهوان**
- ص20 • الشاذلي القليبي: **فاضل الجمالي، من عمالقة تاريخنا العربي الحديث**
- ص24 • عبد السلام لصيلع: **الراحل الدكتور محمد فاضل الجمالي في حوار عمره 35 سنة**
- ص28 • د. محمد فاضل الجمالي: **أزمة الثقافة والمثقفين في عالمنا العربي**
- ص44 • **المعهد العربي للديمقراطية.. فض النزاعات البلدية والقيادة المدنية**
- ص46 • د. خالد شوكات: **الرحلة المستعادة: قبل 35 عاما من وجدة إلى طنجة**
- ص54 • رشيد الذوادي: **الزعيم أحمد المستيري الرجل والقضية.. (1925 – 2021)**
- ص60 • د. أحمد القديدي: **قامات في الذاكرة: صديقي لطفي الخولي**
- ص62 • د. عبد الحسين شعبان: **استذكارات الحوار العربي - الكردي**
- ص68 • عبدالحق لبيض: **أي أفق لتدبير التعدد اللغوي في المدرسة المغربية؟**
- ص78 • شادي زريبي: **أعلام التجديد الشعري في العراق وتونس خلال العهد الملكي**
- ص86 • عثمان الجلاصي الشريف: **مقولات.. فلسفية**
- ص88 • خالد التومي: **شاذرات على غرار تأملات بليز باسكال**
- ص90 • عبد السلام لصيلع: **وتبقى الكلمات**

• الرحلة المستعادة:

قبل 35 عاما من وجدة إلى طنجة

• الزعيم أحمد المستيري الرجل والقضية..(1925 – 2021)

تدريس اللغات وتعلمها: أي أفق لتدبير التعدد اللغوي في المدرسة المغربية؟

محمد فاضل الجمالي.. سياسي من زمن التفكير

بقلم: رئيس التحرير

لا أذكر أي كتاب من كتبه الكثيرة على وجه التحديد، ذلك الذي وقعت عليه يداي وأنا تلميذ في السنة الأخيرة بالمدرسة الابتدائية ببلدتي "المزونة"، وجعلتني أكتشفه ويعلق اسمه بذهني مبكرا، فقد نسيت العنوان ويا لأفة النسيان، حتى مكنني الزمن من لقاء كثير من طلبته وأصدقائه من العراقيين والتونسيين، سمعت منهم شهادات شخصية مشرفة عنه، أكدت في مجملها ذلك الانطباع الإيجابي الذي تشكل في صباي عنه، فالدكتور محمد فاضل الجمالي (1897-1903) يستحق فعلا أن يكون أول شخصية غير تونسية تفرد لها "المصير" ملف أحد أعدادها، لاعتبارات كثيرة، لعل أهمها أنه شخصية سياسية من "زمن التفكير" في زمن انقطع فيه السياسة عن التفكير، وأنه كان طيلة حياته مثالا رائعا في القدرة على التوفيق بين التزامات المسؤولية السياسية وواجبات الموهبة الفكرية والتربوية.

واكب الدكتور فاضل الجمالي الذي قسم القدر حياته إلى نصف متساويين تقريبا، نصف في بلده الأم العراق أين ولد وترعرع وحقق مجده السياسي، ونصف آخر في بلده الثاني تونس أين توفاه اللّه عزيزا كريما كما يستحق وحقق كثيرا من مجده الفكري، وبين النصفين سنوات قضاها هنا وهناك، خصوصا بين لبنان وأمريكا أين أتم دراساته الجامعية، متوجا إياها بنيل أعلى الشهادات العلمية، الدكتوراه في الفلسفة، ولقد كان الرجل بهذه المسيرة الحافلة بالمنجزات والأحداث شاهدا على أهم قرون الزمان، القرن العشرين، قرن الحروب العالمية ونهاية الخلافة الإسلامية وخضوع البلاد العربية للسيطرة الاستعمارية، وظهور الدول الجديدة في المجال العربي الإسلامي وتحرر جلها من السيطرة الامبريالية، وتأسيس المنظمات الأممية الجامعة، عصبة الأمم ثم منظمة الأمم المتحدة، ثم سقوط جل الأنظمة الملكية العربية، وزرع الشجرة الخبيثة الصهيونية دولتها الاستيطانية في أقدس البلاد العربية الإسلامية، وما تلى ذلك من نكبات ونكسات وقعت على رؤوس العرب تباعا، وأخيرا التحولات التي رافقت سقوط المنظومة الشيوعية السوفياتية، والغزو الأمريكي الأول للعراق، والحروب القذرة والحصارات التي فرضت على الأقطار العربية المناهضة للسطوة الغربية..

> **واكب الدكتور فاضل الجمالي الذي قسم القدر حياته إلى نصف متساويين تقريبا، نصف في بلده الأم العراق أين ولد وترعرع وحقق مجده السياسي، ونصف آخر في بلده الثاني تونس أين توفاه الله عزيزا كريما كما يستحق وحقق كثيرا من مجده الفكري**

كل هـذه التحولات وغيرهـا كان الجمالي رحمه اللّه أحد المشـاركين فـي صنعهـا أو المحللين لهـا والمتابعين لآثارهـا، ومن هنا فنحن إزاء شـخصية اسـتثنائية بأتم معنى الكلمة، تستحق من الباحثين والمؤرخين الانكباب عليها والاستفادة منها.

تولـى الدكتـور محمد فاضـل الجمالي منـذ عودته من الخارج بأعلى الشـهادات، عديد المسـؤوليات في الدولة العراقية الجديدة التي تأسست عقب معاهدة العشرين، واعتمـدت النظام الملكي ابتـداء من ذلك التاريخ بقيادة الملك فيصل الأول ابن الشـريف حسـين ملـك الحجاز، حتى الملك فيصل الثاني الذي اغتيل سنة 1958 وسقط بموجـب اغتياله النظام الملكي برمته، وحكم على أهم رجاله بالإعدام ومن أهمهم الجمالي، الذي شغل منصب وزير أكثر من سـبع مرات، وشغل منصب رئيس حكومة خـلال الفتـرة مـن 1953 إلـى 1954، وكان آخـر موقع تصدى لـه وزير خارجية العراق فـي آخر حكومة لنوري السـعيد، وهي آخر حكومات العراقية الملكية، ويشـهد المؤرخـون للجمالـي بأنـه كان مـن خيرة رجـال العهد الملكـي وأنظفهم وأفضلهم سـيرة وعطـاءا وأكثرهم إخلاصا للعراق والأمة العربية والإسلامية بأسرها.

ومما يذكـره بعـض المؤرخيـن، أن الزعيـم الحبيـب بورقيبة قد تشفع للدكتور الجمالي حتى لا يتم إعدامه، لدى قـادة العـراق الجدد، عبـد الكريم قاسـم ورفاقه، باعتبـاره رئيسـا ومؤسسـا للجمهورية التونسـية، وقد دعاه إلى القدوم إلى تونس والاسـتقرار بها في رعايته الشـخصية ورعاية الدولة التونسـية، وقد عاش الرجل بيـن التونسـيين كواحد منهم، مسـاهما فـي النهوض بالتعليـم العالي كأحد أبرز أسـاتذة الجامعة التونسـية التي تأسسـت فـي أفق مجيئه من سويسـرا إلى بلادنا سنة 1964، وظل يمارسه وظيفته في التعليم والتفكير والكتابـة حتـى أحيل علـى التقاعد وجاءتـه المنية قبل انغلاق القرن العشـرين بثلاث سـنوات، حيث نشر طيلة هـذه الفترة العديـد من الكتـب والمؤلفات والدراسـات والمقـالات، تدور بيـن المجالات المحببـة إليه والمتفقة مع اهتماماته في التربية والنهوض الحضاري والشؤون الدولية والأممية،

إن تخليـد مسـيرة رجـل بحجـم الدكتور محمـد فاضل الجمالـي، هو فـي واقع الأمـر صرخة في وجـه الرداءة التي آلت إليها أوضاع النخب السياسية في بلديه، العراق وتونـس، حيث عمت الأمية وانحطت الأخلاق وتكرسـت مفاهيم منحرفة للعمل العـام، فيما كان التوقع مخالفا تمامـا لمسـارات الأحداث، فأي قياس بسـيط لمسـتوى النخـب فكريا ومعرفيا وأدبيا وأخلاقيا، بين حقبة ما بين الحربين الملكية، وقد كانت على قدر كبير من الليبرالية الديمقراطيـة، وهذه الحقبة الجمهوريـة التي يفترض اتسامها بذات الطبيعة التعددية التحررية، سيبدو الفرق شاسـعا ومثيرا لصالح تلك النخب التي حكمت قبل قرن من الزمان شعوبا أمية في غالبها بينما كان المسؤولون فـي منتهـى الرقـي الأكاديمـي والفكري والسياسـي، فيما تظهـر النخب الحالية في منتهـى الضحالة أخلاقيا وسـلوكيا، ناهيـك عـن تواضـع مسـتواها التعليمـي، علـى الرغـم مـن أن الشـعوب أصبحـت فـي غالبيتهـا تقرأ وتكتب.

> **كانت حياة الدكتور الجمالي نموذجا فريدا في انقلاب الموازين وتبدل الأحوال وصروف الزمان وصعود الأنظمة وهبوطها على الصعيدين الإقليمي والدولي**

لقـد كانت حيـاة الدكتـور الجمالـي نموذجـا فريدا في انقلاب الموازين وتبدل الأحوال وصروف الزمان وصعود الأنظمـة وهبوطها على الصعيديـن الإقليمي والدولي، مثلما كانت على المسـتوى الشخصي نموذجاً في الوفاء والخـذلان والنكـران وعدم النسـيان، حيـث دور الرجل فـي تأسـيس الأمم المتحـدة ومـا بذله مـن جهود في جعـل العراق في خدمة أشـقائه أبناء الشـعوب العربية المسـتعمرة، إذ مـن الطرائـف الحقيقيـة التـي تذكـر لهذه الشـخصية شـديدة الاعتزاز بهوية أمتهـا العربية الإسـلامية، أنه وهـو وزير للخارجيـة العراقية وقد كان في رئاسـة وفد لدى الأمم المتحدة، اعترض سبيله وفد الحركة الوطنية التونسية هناك حيث جاء يبذل مساعيه للتعريف بقضيته وإدانة فرنسـا الاسـتعمارية، فما كان من هذا العراقي الأصيل إلا أن ضم الوفد التونسـي إلى الوفد العراقي، والعراق بلد مؤسس للأمم المتحدة سنة 1945، وهكذا تفاجأ المسـتعمرون الفرنسيون بأصوات تدينهـم في مكان ظنوه آمنا إلـى ذلك الحين. رحم اللّه فقيد العروبة والإسلام الوزير والمفكر والكاتب الدكتور محمد فاضل الجمالي.

سعادة السفير العراقي السيد ماجد اللجماوي وهو يسلم د.خالد شوكات نسخة من شهادة وفاة الدكتور الجمالي.

جمهورية العراق
وزارة الصحة
دائرة صحة

شهادة وفاة

نسخة الاحوال المدنية

رقم الشهادة : 0457301

تاريخ التنظيم : ٢٠٢١/٦/٢٢ الساعة : ١١:٥

١-اسم المتوفي محمد فاضل	٢-اسم والد المتوفي عباس	٣-اسم جد المتوفي محمد	٤-اسم والدة المتوفي خديجة
٥-الجنس ذكر	٦-الجنسية عراقية	٧-الديانة مسلم	٨-المهنة استاذ جامعي
٩-الحالة الزوجية : اعزب / متزوج ✓ / ارمل / مطلق	١٠-تاريخ الولادة : ٣٠/٤/١٩٤٣	١١-محل الولادة : قضاء بغداد محافظة الكاظمية	
١٢-اقامته الدائمة : رقم الدار / زقاق / المحلة او القرية / ناحية / قضاء سيدك لوكسيد محافظة تونس		١٣-محل الوفاة : المحلة او القرية ناحية لوبس قضاء الجلاز محافظة تونس	
١٤-تاريخ الوفاة (كتابة) العشرون من آيار سنة الف وسبعة وتسعون	يوم الرابع والعشرون	١٩٩٧/٥/٢٤	
١٥-اسم المبلغ عن الوفاة العزيز الطرخاني	١٦-صلته بالمتوفى صديق	١٧-عنوان المبلغ الكامل تونس سيدك لوكسيد	

١٨-شهادة الوفاة الطبية :

(١) المرض او الحالة التي ادت للوفاة مباشرة (أ) سكتة قلبية (تسبب عن او نتيجة لما يليه)

الحالات المرضية (ان وجدت) والتي ادت للسبب اعلاه مع ذكر السبب الاصلي في النهاية (ب) (تسبب عن او نتيجة لما يليه) (ج) (تسبب عن او نتيجة لما يليه) (د)

(٢) حالات مهمة اخرى ساعدت على الوفاة ولا صلة لها بالمرض او الحالة التي سببت الوفاة

الفترة التقريبية بين ظهور الاعراض و الوفاة

١٩-هل المتوفى امراة وفي مرحلة الحمل او الاسقاط او الولادة و النفاس نعم ☐ كلا ☐

حدثت الوفاة اثناء : ١- الحمل ٢- الاجهاض ٣- الولادة ٤- النفاس (للولادة والاجهاض) تذكر مدة الحمل بالاسابيع ( )

٢٠-حدثت الوفاة في : البيت المستشفى ✓ مكان اخر اسم المستشفى او المركز الصحي العسكري نوع الردهة رقم الطبلة

ختم المؤسسة

٢١- اشهد ان الوفاة قد حدثت من الاسباب المثبتة اعلاه . اسم الطبيب :

عنوان اشتغال الطبيب : توقيعه

٢٢- قرار القاضي (في حالة عدم تشريح الجثة)

٢٣-شهادة طبية عدلية (تملأ وتوقع من قبل الطبيب العدلي)

اني الموقع ادناه الدكتور الطبيب في قمت بتشريح جثة المتوفي

حسب استمارة طلب التشريح المرفقة والمؤرخة في / / ٢٠١

والمرسلة من قبل

التوقيع الختم

سجلت لدى دائرة صحة / تحت تسلسل / لسنة

مكتب ولادات و وفيات

الدكتور محمد فاضل الجمالي

ولـد الدكتور محمد فاضل الجمالي في الكاظمية (العراق) سـنة 1903 تخرج مـن دار المعلمين الإبتدائية في بغـداد، درس العربية والدين في مدرسـة الإمام الخالصـي في الكاظمية، درس فـي الجامعة الأمريكية في بيـروت فنال درجة ب. ع (بكالوريوس علوم) مع شـهادة تدريس، درس في كليـة المعلمين بجامعة كولومبيا فحصل على درجة الماجسـتير ثم دكتور فلسـفة. قضى فصلا صيفيا في مدرسـة التربية بجامعة شيكاغو. منح وسام الخدمة الممتازة في التعليم من كلية المعلمين بجامعة كولومبيا.

بدأ ممارسة التعليم في الخامسة عشرة من عمره سنة 1918 فدرس في المدارس الإبتدائية ثم درس التربية وعلم النفس في دار المعلمين الإبتدائية ثم درس فلسفة التربية والتربية الأخلاقية في دار المعلمين العليا. اشـتغل منصب المدي العام للتربية والتعليم في العراق مدة تزيد على العشـر سنوات، حاضر وكتب وألف في التربية والتعليم.

عين مديرا عاما لوزارة الخارجية العراقية سـنة 1943 ثم وزيرا للخارجية ثمان مرات، انتخب رئيسـا للمجلس النيابـي العراقـي مرتين، أصبح رئيسـا للوزارة العراقية مرتين. سـاهم في مؤتمر الأمم المتحدة في سـان فرانسيسـكو ووقع على الميثاق باسـم العراق، ترأس الوفد العراقي إلى الجمعيـة العامة للأمم المتحدة في أكثر اجتماعاتها حتى سنة 1958.

ترأس الوفد العراقي إلى جامعة الدول العربية عدة مرات. ترأس الوفد العراقي إلى المؤتمر الآسيوي الإفريقي في باندونغ سـنة 1955. دافع في المحافل الدولية عن حق الشـعوب الآسيوية والإفريقية بالإستقلال. ناضل من أجل استقلال كل من ليبيا والمغرب وتونس والجزائر دافع عن حق عرب فلسطين مستنكرا ما وقع عليهم من ظلم وعدوان.

حكم عليه بالإعدام بعد انهيار النظام الملكي في العراق سنة 1958 ثم استبدل حكم الإعدام بالسجن وأفرج عنه ليلة 14 تموز (جويلية) 1961.

قدم إلى تونس سنة 1962 للتدريس في الجامعة التونسية. ساهم في مؤتمر العالم الإسلامي المنعقد بمكة المكرمة سـنة 1965 وتـرأس اللجنة الثقافية فيه. كتب وحاضر في الشـؤون التربوية والعربية والإسـلامية والدولية.

توفي في شهر ماي 1997 ودفن بمقبر سيدي عبد العزيز بالمرسى.

من مؤلفاته:

1 - تربية الإنسان الجديد (ط1).
2 - تربية الإنسان الجديد (ط2).
3 - دعوة إلى الإسلام.
4 - نحو تربية مؤمنة.
5 - الخطر الصهيوني (ط1).
6 - الخطر الصهيوني (ط2).
7 - آفاق التربية الحديثة في البلاد النامية.
8 - نحو توحيد الفكر التربوي في العالم الإسلامي.
9 - صفحات من الكفاح العربي.
10 - نحو تجديد البناء التربوي في العالم الإسلامي.
11 - كارثة فلسطيني وأثرها في الواقع العربي.
12 - الصهيونية الأمريكية والمأساة الفلسطينية.
13 - Voici l'Islam (بالفرنسية).
14 - Sans Répit (بالفرنسية).
15 - دفاعا عن العربية.
16 - مواقف وعبر في سياستنا الدولية.

للوفاء والذكرى: مساهمة الدكتور فاضل الجمالي في الدفاع عن القضية التونسية(*)

الراحل الأستاذ حمادي الساحلي
مؤرخ وباحث تونسي

*** العلاقات بين تونس والعراق**

إن العلاقـات بين تونس والعـراق قديمة جدا يعـود عهدها إلى نهاية الحـرب العالميـة الأولـى (1914 - 1918)، فقـد تحول زعيـم الحركة الوطنيـة التونسـية عهدئذ الشـيخ عبـد العزيز الثعالبـي إلى باريس سـنة 1919 لتقديم عريضة إلى مؤتمر الصلـح والمطالبة بالاعتراف بحق تونـس في تقرير مصيرها وفقا للمبادئ التي أعلن عنها رئيس الولايات المتحدة ويلسـن. وفي باريس التقى الثعالبي بالأمير فيصل بن الحسين الذي كان قد تعرف إليه من قبل في إسطنبول، فاستحكمت بينهما علاقات الود والتقدير، بحيث لما أجبرت السـلطة الاسـتعمارية الفرنسـية الزعيـم التونسـي في جويليـة 1923 على مغـادرة وطنه والهجرة إلى المشـرق إثر تأسـيس الحزب الحر الدسـتوري التونسي، التجأ في آخر الأمـر إلى بغداد تلبية لدعوة صديقه الأمير فيصل الذي أصبـح في الأثنـاء ملكا على العـراق، في حين عين أخـوه الأمير عبد اللّه على رأس شـرق الأردن. وفي بغداد عهد الملك فيصل إلى الشيخ عبد العزيز الثعالبي بتدريس الفلسـفة الإسـلامية بجامعة آل البيت، فاضطلـع بتلـك المهمة على أحسـن وجه ممكن من سـنة 1925 إلى سنة 1930، تاريخ إلغاء تلك الجامعة. فعينته الحكومة العراقية مراقبا لبعثة الطلبة العراقيين بالقاهرة.

> **سفير العراق بالقاهرة حسين العسكري أمد الوطنيين التونسيين المقيمين بمدريد بجوازات سفر عراقية لتمكينهم من التحول إلى القاهرة والالتحاق بالزعيم الحبيب بورقيبة**

*** نشاط الوطنيين التونسيين بمصر**

طـوال فترة ما بيـن الحربين ظلت البلاد التونيسـة تعيش في عزلة تامة بسـبب السـتار الحديدي الذي ضربه عليها الاسـتعمار الفرنسـي، فمـا إن وضعت الحـرب العالمية الثانية أوزارها (1945-1939) حتى تمكـن الزعيـم الحبيب بورقيبـة من اختـراق ذلك السـتار في 26 مارس 1945، إثر تأسـيس الجامعة العربيـة قبل ذلـك بأربعة أيام، تحـول إلى القاهرة خلسـة للتعريـف بالقضية التونسـية بالخـارج، ثم التحـق به فـي السـنة الموالية إخوانـه الذين كانوا لاجئيـن في أوروبا مدة الحرب: الدكتور الحبيب ثامر والطيب سـليم والرشـيد إدريس والهادي السعيدي وحسـين التريكي. فانتظم العمـل وتوحدت الجهود الراميـة إلى ربـط الصالة مـن جديد بيـن المغرب العربـي وبقيـة الأقطـار العربية الأخـرى. واعتبارا مـن ذلـك التاريخ أخذ المشـرق العربـي يهتم أكثر فأكثر بما يجري خلف الستار الحديد المضروب على أقطـار المغرب العربي الرازحة تحت نير الاسـتعمار الفرنسي الغاشم.

وقـد حظيت القضية التونسـية بوجه خاص بتأييد عـدد أكبر فأكبر من القادة العـرب أمثال الملك عبد العـزي آل سـعود وابنـه الأميـر فيصـل والرئيـس السـوري شـكري القوتلي ورئيس الوزراء اللبناني ريـاض الصلح والأمين العام للجامعـة العربية عبد الرحمان عزام. ومن بين الدبلوماسيين العرب الذين تميـزوا بمسـاعدتهم للقضيـة التونسـية ومـد يد المسـاعدة إلى رجال الحركة الوطنية سفير العراق بالقاهرة حسين العسكري. فهو الذي أمد الوطنيين التونسيين المقيمين بمدريد بجوازات سفر عراقية لتمكينهـم مـن التحـول إلـى القاهـرة والالتحـاق بالزعيم الحبيب بورقيبة.

*** ظهور الدكتور فاضل الجمالي على السـاحة الديبلوماسية**

وفـي هـذه الفترة بالذات بـدأ نجم الدكتـور فاضل الجمالي يسـطع فـي سـماء الدبلوماسـية العربية والدوليـة منـذ انتهاء الحـرب العالميـة الثانية حيث أسهم بالخصوص في صياغة ميثاق الأمم المتحدة ونجح في إدراج البنود التي تعترف بحق الشعوب في تقرير مصيرها بنفسـها. ووقع في سنة 1945 على هذا الميثاق في سان فرانسيسكو باسم العراق الذي كان من الـدول العربيـة المؤسسـة لمنظمة الأمم المتحـدة. وقد عـرف الفقيـد في الأوسـاط الدولية بدفاعـه عـن الشـعوب المضطهـدة وبالخصـوص شـعوب تونس والجزائر والمغرب وفلسـطين. وقد تولى وزارة الشـؤون الخارجية ثمانـي مرات اعتبارا من سنة 1946. وترأس بهذه الصفة وفد العراق في منظمـة الأمـم المتحدة وفي جامعة الـدول العربية بدون انقطاع تقريبا، حتى سنة 1958.

كما تولى رئاسة مجلس العراقي مرتين، وقد كرس جهـوده خلال هـذه الفترة الطويلـة (1958-1946) لتوطيـد أواصر التعاون بين الـدول العربية والعمل علـى تحقيق الوحـدة العربية والدفـاع عن القضية الفلسطينية والنضال من أجل تحرير أقطار المغرب العربي.

*** دفـاع الدكتـور فاضـل الجمالـي عـن القضية التونسية**

لقـد كان الدكتور فاضل الجمالـي موجودا بباريس لحضور أشـغال الجمعية العامـة للأمم المتحدة في قصـر شـايو. لما اتصـل رئيـس الوفـد التفاوضي التونسـي الوزير الأكبر محمد شـنيق برسالة وزير الشـؤون الخارجية الفرنسي روبار شومان المؤرخة

في 15 ديسمبر 1951، تلك الرسالة التي اعتبرها الطرف التونسي إعلانا عن القطيعة بين تونس وفرنسا. وقد أجرى الدكتور الجمالي بتلك المناسبة اتصالات مكثفة مع الوزراء التونسيين ورجال الحركة الوطنية الموجودين آنذاك في باريس: الحبيب بورقيبة ومحمد شنيق وصالح بن يوسف ومحمد بدرة والباهي الأدغم. لتبادل وجهات النظر حول السبل الكفيلة بتوفير أسباب النجاح للقضية التونسية التي تقرر عرضها على منظمة الأمم المتحدة، كما ساعد المسؤولين على إجراء اتصالات مع مختلف الوفود الأجنبية الموجودة بباريس لحضور أشغال الجمعية العامة للأمم المتحدة.

ولما رفض الأمين العام لمنظمة الأمم المتحدة تريغفي قبول الشكوى التي قدمتها الحكومة التونسية إلى مجلس الأمن في 14 جانفي 1952، عمل الدكتور الجمالي منذ شهر فيفري 1952، بالاشتراك مع وزير خارجية باكستان ظفر اللّه خان، على بعث الكتلة الأفريقية الآسيوية التي تبنت القضية التونسية.

وخلال الدورة السابعة للأمم المتحدة المنعقدة في خريف سنة 1952 نجحت الكتلة الأفريقية الآسيوية في إدراج القضية التونسية في جدول أعمال الجمعية العامة.

وفي 17 ديسمبر 1952، إثر اغتيال الشهيد فرحات حشاد صادقت الجمعية العامة بأغلبية الأصوات على لائحة توصي بأن يواصل الطرفان (التونسي والفرنسي) بدون توان التفاوض بينهما في سبيل تمكين التونسيين من القدرة على إدارة شؤونهم بأنفسهم.

ورغم اعتدالها، فإن هذه اللائحة تعتبر كسبا كبيرا للقضية التونسية، حيث أعلنت الجمعية العامة للأمم المتحدة عن صلاحيتها للنظر فيها، رغم إدعاء الحكومة الفرنسية بأن هذه القضية ترجع إليه بالنظر دون سواها. ولما تولى المرحوم فاضل الجمالي رئاسة مجلس الوزراء العراقي في سنة 1953 أكد في برنامجه التزام حكومته بمواصلة تأييد المطالب التونسية، والعمل على تقديم كل وسائل الدعم للحركة الوطنية التونسية حتى الاستجابة لمطالبها المشروعة والاعتراف بحق تونس في الحرية والاستقلال.

كما مد يد المساعدة إلى الطلبة التونسيين لتمكينهم من مواصلة دراستهم العليا في العراق. وساعد أيضا الزعيم علي البلهوان على الاستقرار ببغداد لتدريس الفلسفة بالجامعة.

وقد جاء في رسالة مؤرخة في 3 ماي 1953، وجهها علي البلهوان من بغداد إلى رفيقه في الكفاح الأستاذ الباهي الأدغم ممثل الحزب الدستوري الجديد في نيويورك. ما يلي:

"اهتز العراق كله لقضية تونس واتصلنا بالحكومة وبجميع الأحزاب والهيئات، ولا يمضي وقت إلا والصحافة تطفح بالمقالات والأبحاث والأخبار حول قضيتنا الوطنية".

وفي رسالة ثانية مؤرخة في 28 ماي 1953 أخبر علي البلهوان نفس مخاطبه بما يلي: "قابلت معالي فاضل الجمالي- وهو نصير حقيقي لقضايا المغرب العربي- فأكد لي تأييده لنضال المجاهدين في تونس ومراكش".

وبفضل مساعي الدكتور الجمالي والكتلة الإفريقية الآسيوية عرضت القضية التونسية من جديد على الجمعية العامة للأمم المتحدة التي صادقت يوم 24 أكتوبر 1953 على لائحة توصي باستئناف المفاوضات بين تونس وفرنسا.

وقد كان للمساندة المعنوية الدولية دور فعال في الضغط على فرنسا وتشجيع المقاومين

والمجاهدين، ورفع معنويات الشعب التونسي الذي كان يتابع عن كثب، من خلال الإذاعات الأجنبية، مداولات الجمعية العامة للأمم المتحدة حول القضية التونسية، وكان فخورا بمواقف ممثلي الدول العربية والإسلامية أمثال فاضل الجمالي وظفر اللّه خان وأحمد البخاري مندوب باكستان وفريد زين الدين مندوب سوريا.

واشتهر الدكتور الجمالي رحمه اللّه بمواقفه الجريئة خطبه البليغة المدوية في قاعات منظمة الأمم المتحدة بنيويورك، للدفاع عن القضية التونسية، فيكسب لها الأنصار ويفحم المندوب الفرنسي: مجلس الأمن هانري هوبنو بحججه القانونية وبراهينه الدامغة.

وبفضل مساندة الرأي العالمي وكفاح الشعب التونسي، اضطرت فرنسا على لسان رئيس حكومتها إلى الاعتراف باستقلال تونس الداخلي، في الخطاب الشهير الذي ألقاه منداس فرانس بين يدي محمد الأمين باي بقصر قرطاج يوم 31 جويلية 1954. وإثر ذلك أعلن الزعيم الحبيب بورقيبة من منفاه بفرنسا عن قبوله لهذا الحل المنقوص باعتباره خطوة أولى للوصول إلى الاستقلال التام الذي يمثل الهدف الأسمى للحركة الوطنية.

وقد شارك الحزب الدستوري الجديد في المفاوضات التي جرت مع الحكومة الفرنسية إلى أن أفضت إلى إبرام الاتفاقات التونسية الفرنسية المؤرخة في 3 جوان 1955، والمتعلقة بإدخال الاستقلال الداخلي حيز التنفيذ، إلا أن الضغوط الدولية على فرنسا لم تتوقف لحملها على الاعترف بحق أقطار المغرب العربي الثلاثة: تونس والجزائر والمغرب في الاستقلال التام، لا سيما بعد اندلاع حرب تحرير الجزائر في أول نوفمبر 1954.

وسعيا إلى تحرير جميع البلدان المولى عليها، عقد رؤساء الدول الإفريقية والآسيوية وممثلوهم- ومن بينهم فاضل الجمالي الذي ترأس وفد العراق- مؤتمرا عاما في باندونغ باندونيسيا من 18 إلى 24 أفريل 1955. وقد حضر هذا المؤتمر ممثلون من أقطار المغرب العربي بصفة ملاحظين، ومثل الحزب الدستور الجديد وفد رئاسة الأمين العام للحزب الزعيم صالح بن يوسف.

وصادق المؤتمر بالإجماع على اللائحة التالية ساهم الدكتور فاضل الجمالي مساهمة فعالة في صياغتها: "نظرا لاستمرار مشكلة شمال إفريقيا بسبب حرمان شعوبها من حقها في تقرير المصير، يعلن المؤتمر الآسيوي الإفريقي تأييد لحق كل من الجزائر ومراكش وتونس في تقرير المصير والاستقلال ويدعو الحكومة الفرنسية إلى حل القضية حلا سلميا دون تأجيل".

ولم تمض سوى ونيف حتى تحصلت كل من المغرب وتونس على الاستقلال التام، وذلك لعى التوالي في 2 مارس و20 مارس 1956.

انتقل الراحل العزيز الدكتور فاضل الجمالي إلى حوار ربه في شهر ماي 1997 ودفن بمقبرة سيدي عبد العزيز بالمرسى رحمه اللّه رحمة واسعة، وجزاه بما قدمه للأمة العربية من أعمال نافعة.

(*) مداخلة الأستاذ حمادي الساحلي في ذكرى أربعينية المرحوم الدكتور فاضل الجمالي التي انتظمت "ببيت الحكمة" بقرطاج يوم 27 جوان 1997.

بين محمد فاضل الجمالي والحبيب بورقيبة وعلي البلهوان

د. أحمد الطويلي
كاتب وباحث تونسي

محمـد فاضل الجمالـي (1903 - 1997) هـذا الرجل المحبوب فـي تونـس، الـذي كان له الفضـل الكبير علـى تونس زمن محنتها ومقاومتها الاسـتعمار كان رئيس وفد البعثة العراقية في منظمة الأمم المتحدة سـنة 1954، وكان العراق أول دولة عربية فازت باستقلالها بين الحربين في سنة 1930 بمقتضى معاهدة عراقية بريطانية انتهى بموجبها الانتداب البريطاني على العراق ودخلت عصبة الأمم المتحدة سنة 1932، وأصبحت عضوا كاملا فيها، وكان الجمالي أحد الموقعين على تأسـيس منظمـة الأمـم المتحدة. وحين منـع الزعيم الحبيـب بورقيبة من دخول مبنى المنظمة سـنة 1954 للتعريف بقضية بلاده، وكانت تونس في معركة الاسـتقلال الحاسمة بقيادته، أدخله الجمالـي ضمن وفده وعلـق على صدره شـارة العراق فألقى خطابا بليغا بالفرنسـية زلزل به البعثة الفرنسية في منظمة الأمم المتحدة حتى انسـحبت من الجلسـة، وكانت فرصة من ذهب لبورقيبة ليبين المحنة التونسية طالبا تخليص بلاده من براثن الاستعمار، وترك خطابه أثرا بالغا في المنظمة الأممية. وقال بورقيبـة بعد أن ألقى خطابه وقلبه يفيض بالعرفان له

> **أطلق سراح الجمالي في 14 جويلية 1961. واستدعاه بورقيبة إلى الإقامة بتونس فقبل الدعوة وجاء إلى تونس سنة 1962 مرحبا به، مكرما معززا، ولاقى كل إكبار ومحبة من الشعب التونسي و الحبيب بورقيبة، وسمي شارع باسمه في العاصمة، كل ذلك اعترافا بفضله.**

ولـكل من قدم لوطنه خدمة في أشـد أوقاته، مسـرا للجمالـي: لا أنـا، ولا بـلادي ستنسـى صنيعك هـذا. وكان الجمالي قد تولى الخطط السـامية بالعـراق خاصـة وزارة الخارجيـة ورئاسـة مجلس نواب الشـعب، وحين سـقط النظام الملكي بالعراق يوم 14 جويلية 1958 فـي انقلاب عبـد الكريم قاسـم حكمت عليه المحكمة العسـكرية بالإعدام ثم حول الحكم إلى المؤبد، فقام الحبيب بورقيبة بمناشدة عبد الكريم قاسم العفو عنه، والسماح له بمغادرة العراق إلى تونس فاسـتجاب له، وأطلق سراح الجمالـي فـي 14 جويليـة 1961. واسـتدعاه بورقيبـة إلى الإقامـة بتونس فقبـل الدعوة وجاء إلى تونس سـنة 1962 مرحبا به، مكرما معـززا، ولاقـى كل إكبار ومحبة من الشـعب التونسـي و الحبيـب بورقيبة، وسـمي شـارع باسمه في العاصمة، كل ذلك اعترافا بفضله.

وتولى الجمالي التدريس بالجامعة التونسية، ونشـر عديـد الكتـب الثقافيـة والسياسـية بتونس، وشـارك في ملتقيات ثقافية وعلمية بالبلاد التونسية، وكنت أحيانا في صحبته في منابر داخل الجمهورية خاصـة بالقيروان في ندواتها الإسـلامية، وكان حدثنـي طويلا عن نضالـه في الجمعية العامة للأمم المتحدة في دفاعه عـن القضيـة الفلسـطينية وأطوارها خاصة عن ظروف تقسـيم فلسطين، وكذلك عن دوره في مؤتمر باندونغ ودور علي بلهوان في الإعداد له.

وكان وجـه مـن تونس سـنة 1969 "رسـالة مفتوحـة إلـى الشـعب العراقـي الكريم" بعد غيابـه عـن العـراق بثماني سـنوات، أهداني منها نسـخة بعبارات رقيقة يعلـم العراقيين فيها بحاله بتونس يقول: " بني وطني الأعزاء (...)أحمد اللّه تعالى على نعمة الحياة والحرية

ولبقائي على قيد الحياة لأتحدث إلى إخواني وأخواتي على اختلاف عناصرهم ومذاهبهم، على اختلاف مناصبهم ومهنهم بكل صراحة وتجرد. أؤكد لكم أيها الأعزاء بأنه لم تغمض لي عين في يوم من الأيام دون أن أفكر في أحوال العراق وما حلى به في السنوات العشر الأخيرة ..." (ص 4-3).

وكان لمحمد فاضل الجمالي دور في انعقاد مؤتمر باندونغ الآسيوي والإفريقي بأندونيسيا في أفريل 1955 للدفاع عن البلدان المستعمرة ، يقول : " إن المحرك بل الدافع الأول لعقد هذا المؤتمر هو القضية المغربية ، أي استقلال تونس والمغرب على الأخص " وكان علي البلهوان المناضل الكبير قد ساعده في إعداده وهو إذ ذاك في مصر يعرف بقضية بلاده قد أوفده الحزب الحر الدستوري التونسي إلى القاهرة في 14 سبتمبر 1951 لينضم إلى إخوته الذين سبقوه هنالك ليشرفوا على مكتب الحزب الذي أسسه الزعيم الحبيب بورقيبة في العاصمة المعزية .

وفي سنة 1952 سافر البلهوان إلى العراق وفتح فيه مكتبا للحزب الحر الدستوري ، واضطلع في بلاد الرافدين بمهمات علمية وثقافية وسياسية فكان يدرس اللغة العربية في جامعة بغداد ودار المعلمين العليا أيضا ، وكان يخطب بالنوادي ويكتب في الصحف وارتبطت علاقة وطيدة بينه وبين محمد فاضل الجمالي الذي قدم لنا عنه شهادة ثمينة ، يقول : " كان المرحوم الأستاذ علي البلهوان الأمين العام المساعد للحزب الحر الدستوري همزة الوصل بين حركة الكفاح التونسي من أجل الاستقلال والحكومة العراقية (...) وقد تعرف على العراق وعلى شخصياته السياسية العاملة في القضية العربية . وكان يحرص على تعبئة العراق من أجل القضية التونسية، وكانت له صلة وثقى بي شخصيا وتكونت بيننا أخوة وصداقة متينة ".

وحين رجع البلهوان إلى القاهرة كتب له الجمالي رسالة يطلب فيها منه إعانته في السعي لعقد مؤتمر باندونغ، وأجابه برسالة مطولة قال فيها: " قمت باتصالات مع سفراء بعض الدول الآسيوية لمعرفة رأيها في ذلك الموضوع وخصوصا معالي سفير اندونيسيا بباريس عند مروره بالقاهرة، فأعلمني أنه أصبح رئيس دائرة الشرق الأوسط بوزارة الخارجية الاندونيسية.

ولما فاتحته بالموضوع أظهر استعداده للسعي في تحقيقه، ووعدني بأنه سيبذل قصارى جهوده لإقناع فخامة أحمد سوكارنو والحكومة الاندونيسية. أما الباكستان فسأقابل القائم بأعمال سفارتها بالقاهرة للاتصال مع حكومته ومعرفة رأيها في الموضوع " .

ويعترف علي البلهوان بأن محمد فاضل الجمالي هو صاحب فكرة مؤتمر باندونغ يقول له في هذه الرسالة: " ومهما تكن جهودنا فإنها تحتاج إلى تأييد منكم ومساندة بل الفكرة نفسها هي فكرتكم وأنتم أقدر الناس على تحقيقها. وإن دوركم في نجاحها هو الدور الرئيسي. ولذا فإن تونس ترجو من معاليكم أن تثبتوا قضيتها في هذه المرة كما تبنيتموها في أول أمرها. وتعملوا لتحقيق دعوة ذلك المؤتمر ". وختم الرسالة بقوله: " إننا ننتظر رأيكم السديد لنتابع على ضوئه وبمساندتكم

ما شـرعنا فيه مـن عمـل وإن تونس لا تعـول عليكـم وتضع أملهـا فيكم " ووقع الرسـالة باسـمه وصفته: الأمين العام المسـاعد للحزب الحر الدستوري التونسي.

وتـم انعقـاد المؤتمـر فـي باندونـغ باندونيسـيا فـي 24 أفريـل 1955، وترأس الجمالي الوفد العراقي، وشهر فـي خطابـه الافتتاحـي بالاسـتعمار الفرنسـي فـي بلدان المغـرب العربي بمراكش والجزائر وتونس.

وندد بالإرهاب الفرنسي "بدون مراعاة ولا تمييـز على هذه البلـدان "، وطالب بحقـوق هـذه الشـعوب فـي الحريـة والاسـتقلال، قال: " فرنسا عضو مهم من أعضاء الأمم المتحدة يقضى عليها أن تسـير على هـدى مبـادئ وتعاليم ميثاق الأمم المتحدة " .

وكان علـي البلهـوان باتصـال دائـم بالجمالـي، ومـا إن تحصلـت تونـس على اسـتقلالها في 20 مـارس 1956 حتـى أسـرع فـي نفـس اليـوم ببعث رسالة إليه يبشره فيها بالحدث السعيد ويعلمه فيها بمشـاريع دولة الاستقلال وبرامجها منها إنشاء مجلس تأسيسي لإحداث دستور، ويعلمه أنه رشح نفسه لعضويـة المجلـس كرئيـس قائمـة بمنطقة الوسـط الغربي، يقول: " الآن تضاعفـت مسـؤولياتنا بعـد أن أنقذنا هـذا الوطـن العربـي من الاسـتعمار، بقـي الطـور الثاني من الكفـاح، طور البناء والتشييد ".

من هو محمد فاضل الجمالي؟

هو من مواليد سنة 1903 في حي الكاظمية بالعاصمة العراقية وهو أكبر حي شعبي ببغداد، حيث مرقد الإمامين موسى الكاظم ومحمد الجواد عليهما السلام، ومرقد الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان رضي اللّه عنه، فهو من الأماكن المقدسة الشريفة .

نشأ الجمالي في هذا الحي، ودرس في مدرسة الإمام الخالصي، وانتقل إلى بيروت حيث درس بالجامعة الأمريكية، وواصل دراسته العليا بالولايات المتحدة الأمريكية بجامعة كولمبيا، وتحصل فيها على الدكتورا في الفلسفة.

ورجع إلى العراق وتولى فيه الإدارة العامة للتربية والتعليم، وهما اختصاصه الكبير. وفي سنة 1943 تولى منصب الإدارة العامة بوزارة الخارجية في الحكومة العراقية ثم حقيبة وزير للخارجية ثم انتخب رئيسا لمجلس نواب الشعب.

وكان رئيس البعثة العراقية في منظمة الأمم المتحدة، ورئيس الوفد العراقي إلى مؤتمر باندونغ سنة 1955.

من تآليفه عن القضية الفلسطينية: صفحات من الكفاح العربي في سبيل التحرير والتوحيد والتجديد، الدار التونسية للنشر، تونس 1980، الصهيونية الأمريكية والمأساة الفلسطينية، الدار العربية للكتاب، تونس-ليبيا، 1984، الخطر الصهيوني، الشركة التونسية للتوزيع، تونس 1985، وكتاب بالفرنسية ترجمه من العربية المستشرق مارسال كولمب Marcel Colombeعنوانه : Sans Répit, Evolution de la Tragédie Palestinienne صدر عن الدار التونسية للنشر سنة 1981.

فاضل الجمالي، من عمالقة تاريخنا العربي الحديث

الأستاذ الشاذلي القليبي
اول وزير ثقافة في تونس

لم تمض إلا أسابيع قليلة على وفاة صديقنا الفاضل الجمالي، ويخيل إلي أنها دهر طويل، إذ الرجل كان، منذ آماد بعيدة، في عداد عمالقة تاريخنا العربي الحديث.

والدكتور الجمالي من القلائل الذين ارتقوا، عن جدارة، وهم أحياء، منبر التاريخ، وبعد رحيلهم، بقيت نبضات فكرهم متواصلة الوهج، بلا انقطاع.

ومن حق الإعلام العربي المبادرة إلى إحياء ذكرى هذا الرجل الفذ، ذلك أن الجمالي لم يكن يرد، على من يصفه بضيف تونس، أنه تونسي محبة، وأصالة، واستحقاقا وأنه مقيم بها لمدة تقارب التي قضاها في بغداد. ولئن كان منح لقب مواطن تونسي، فقد كان يتصرف فعلا عن إحساس عميق بالإنتماء إلى المجتمع التونسي. ولا أعرف من التونسيين من كان أكثر منه حرصا على المساهمة في المنتديات الأدبية، وحضور المهرجانات المتنوعة، والاتصال الدائم بمختلف الشرائح الثقافية والدوائر السياسية، مع نشر المقالات في شتى المواضيع بالصحف اليومية.

> **كان الجمالي رجل أخلاق ومبادئ، ولا شيء أكره إليه من تجاوز الحق، واستعمال القوة. وكان يرى في هاذين هدما للروح، وتقويضا لأساس الاجتماع. وهو، في ذلك، مسلم حقا.**

والحقيقة أن اسم "فاضل الجمالي" كان له، عن بعد، رنينه لدى الجماهير التونسية، منذ أوائل الخمسينات، لما كان الشعب التونسي يخوض معركته الأخيرة في سبيل الاستقلال. وقد كان الجمالي إذاك يحضر مداولات الأمم المتحدة، ويتصدى للدفاع عن القضية التونسية، ويقدم إلى نواب الحركة الوطنية كل ما يستطيع من أنواع الدعم والمؤازرة. وكان التونسيون يترصدون، على أمواج الأثير، وبشغف، أخبار مداخلاته في مجلس الأمن أو في الجمعية العمومية. ويستمعون، بلهف، إلى ما يذاع من خطبه وتصريحاته. وفي ذلك العهد، الكلمة تقال عن تونس في أروقة المنظمة الدولية، كان لها مفعول سحري على الجماهير الشعبية: ترفع من معنوياتهم في مواجهة القمع، وتزيد المقاومين، في المدن والأرياف، تصميما وجرأة.

فأن يصدع مسؤول مرموق بالدفاع عن حق تونس في الحرية والكرامة، مندد بما يرتكبه الجيش الفرنسي في حق المدنيين العزل، لم يكن شيء من ذلك مألوفا قبل فاضل الجمالي- وأيضا، والحق يقال، قبل ظفر اللّه خان، وكذلك وزير الخارجية المصري محمد صلاح الدين الذي آواه وكرمه الرئيس أيضا، طيب اللّه ثراهم جميع. ولا عجب أن بقي ذكر الجمالي حيا في الذاكرة التونسية، في مختلف أنحاء البلاد. فقد حدثني- رحمه اللّه- أنه فوجئ، يوما بأن سمع تاجرا في أقصى الجنوب يذكر اسم الجمالي وفضله على تونس، قبل أنه يعرف أنه يتحدث إلى الجمالي نفسه.

وكان الفقيد محل تبجيل من قبل الدوائر الرسمية، وخاصة من لندن رئيس الدولة الذي كان يشق الجموع في الحفلات الرسمية لتحيته، أو ينزل من منصة الخطابة متوجها

إليه في مكانه بالصف الأول من الجلوس، للتحدث معه.

وما سمعت يوما الدكتور الجمالي يتبجح بما أسداه للقضية التونسية، أو لقضايا المغرب العربي الكبير عامة. كان يعتقد أن ذلك من واجباته تجاه "الأمة". فمنذ شبابه كان يؤمن بالأمة العربية، ووحدة مصير شعوبها. ولكنه لم يكن يفصل بينها وبين المجموعة الإسلامية. وكان شديد التأكيد على أن العروبة والإسلام صنوان وكلاهما سبيل إلى الإنسانية، لاشتراك هذه الروابط الثلاث في جملة من القيم والمبادئ، بدونهما لا تستقيم أي منها، وفي مقدمة هذه القيم والمبادئ التسامح والتضامن وشرف العقل.

ولئن كان يتحمس ويشتد في دفاعه عن القضايا العربية، فلم يكن ذلك تعصبا منه، بل استنادا إلى قيم أخلاقية ومبادئ فلسفية، آمن بها منذ أول شبابه، وهي تجعل في نظره الإنسان مكلفا بواجبات، ومقيدا بضوابط، في كل تصرفاته، وخاصة منها التي تتعلق بغيره من البشر.

أبلغ مثال عن ذلك دفاعه المتواصل عن قضية فلسطين، باعتبارها قضية عربية وإنسانية، في نفس الوقت، فكان الفقيد يكرس قلمه السيال، وفكره الذي لا يني، لإبراز فظاعة المعاملة التي يلقاها الشعب الفلسطيني. وكان لا يدع فرصة للإلحاح على أن ما فرض على هذا الشعب يتنافى والمبادئ التي قامت عليها الأمم المتحدة، في ميثاقها. والدكتور الجمالي من الموقعين عليه. وبوفاته تفقد وثيقة San Francisco آخر من كان على قيد الحياة من شهودها الموقعين عليها.

واحترام ميثاق الأمم المتحدة نقطة خلاف جوهري بين الجمالي والإدارات الأمريكية المتعاقبة منذ سنة 1947. فقد كان- مثل الكثيرين من رجال السياسة والفكر العرب- يكن للشعب الأمريكي الإعجاب والمودة، لمساهماته العظيمة في شتى مجالات السلام والثقافة والحضارة، كما كان يكبر الدور السياسي الذي قامت به الولايات المتحدة، من خلال إعلان مبادئ Wilson، الذي فتح السبيل أمام الشعوب المولى عليها، لتقرر

مصيرها بنفسها. لكن الجمالي كان يرى أن الدبلوماسية الأمريكية حادت عن هذه المبادئ، لما تعلق الأمر بالقضية الفلسطينية. وإني لأعرف حق المعرفة صداقة الفقيد للولايات المتحدة. وكنا كثيرا ما نتجاذب الحديث في ذلك، فنتفق في الرؤية، وفي تحليل الكثير من الجوانب المحيطة بالقضية. وأعرف أنه لم يكن يكدر صفو هذه العلاقة، لديه غير قضية هذا الشعب المهضوم الحق.. ثم أيضا.. ما يتحمله اليوم الشعب العراقي من جراء حصار اقتصادي كان يقول عنه إنه أخطر ما عرفه التاريخ الحديث، لا فحسب لأنه قاس، بل أيضا، وأولا وبالذات، لتوقع الجمالي أن ستكون له مخلفات وذيول في منتهى الخطورة على صحة الأجيال العراقية الصاعدة، وعلى كيفية تربيتهم، خاصة بما يزرع فيهم من مشاعر متشنجة تجاه الحياة، وتجاه الآخرين.

وكثيرا ما كان يراسل الجهات الرسمية في الولايات المتحدة، للفت نظرها إلى هذه أو تلك من القضايا العربية، مضيفا دوما إن ملاحظاته صادرة "صديق قديم يرجو (للولايات المتحدة) الخير والنجاح في سياستها الدولية".

وكانت مقالات الجمالي سيلا لا ينضب، في الدعوة إلى رفع المعاناة عن الشعب العراقي، وكذلك عن الشعب الفلسطيني المجاهد. ولا شك أنه، لو بقي على قيد الحياة، لخصص هذه الأيام، مقالات بليغة للتشنيع بما يتركبه الجنود الإسرائيليون في ملاحقة أطفال مراهقين، وأشبال في مقتبل العمر، لا سلاح بأيديهم غير الحجارة. فيرمون بأنواع السلاح، الجارح منها والقاتل، بمسمع ومرأى من المجتمع الدولي. ورئيس الحكومة الإسرائيلية لا يأبه، إذا هو مقتنع أن لا أن لا معقب لأفعاله، ولا راد لقراراته. فهو لذلك لا يقيم وزنا لما يبدى، هنا أو هناك، في البلاد العربية أو في أوروبا، من استنكار وامتعاض. وقد قال لي الدكتور الجمالي غير مرة، ما معناه: المجتمع الدولي، بصمته أو إحجامه عن أي عمل، يطلق يد الحكومة الإسرائيلية، فكأنه يعطيها الحق في تجاوز الحق، ودوس القانون، وتجاهل الأعراف. وما ذلك إلا لأن أمن إسرائيل- بل ما يحلو لغلاة الصهاينة أن يعتبروه أمن إسرائيل- أصبح من المقدسات في هذا العصر. فلا يجرؤ أحد على استنكار أعمال ظالمة أو تصرفات خاطئة، خشية أن يتهم بتعريض أمن إسرائيل للخطر، فينعت باللاسامية، وتلحقه هذه الوصمة طوال حياته.

كان الجمالي رجل أخلاق ومبادئ، ولا شيء أكره إليه من تجاوز الحق، واستعمال القوة. وكان يرى في هاذين هدما للروح، وتقويضا لأساس الاجتماع. وهو، في ذلك، مسلم حقا.

ومن أهم القضايا المصيرية التي عني بها أستاذنا الجمالي النهوض بشعوبنا العربية، لتأخذ بأسباب الازدهار، وتقوى على الدود عن حياضها. ويرى أن البداية إنما تكون بإحياء القيم الأخلاقية، ونشر التربية الصحيحة، والثقافة الأصيلة، لإيقاظ الضمائر، وانتشال الجماهير من هوة التخلف.

وفي نظره، من أكبر أسباب التخلف، عندنا، جمود مناهج التعليم، وفقدانها للروح التربوية.

فكان يدعو إلى تأسيس النهضة على تعميم التعليم، وإصلاح المناهج، وغرس القيم الروحية والأخلاقية والاجتماعية. وإنما بذلك

تنمو، في نظره، لدى الشعوب، روح التضحية، والغيرة على المثل العليا وسائر مقومات الأمة.

وكان يعتقد أن التربية والثقافة من أنجع وسائل العلاج لما تشكوه شعوبنا من تخلف وهوان. وقد كتب في ذلك قائلا- ولعله من أواخر ما صدر عنه- "أمتنا العربية اليوم مريضة بأمراض خطيرة، وأخطر أعراض المرض أنها لا تدري أنها مريضة..".
وكان كثير الترداد لاقتراح صدع به في بعض كتاباته، وهو إنشاء "مجلس حكماء" لوضع اقتراحات أساسية، على ضوئها يتم النهوض بالأمة.

وصحيح أن الجمالي، في شبابه، تأثر بآراء الفيلسوف الأمريكي جون ديوي- JohnDewey- صاحب النظرية القائلة بمركزية دور التربية في تكوين المجتمعات، وإعطائها مراجع أخلاقية تكون لها بمثابة النبراس الهادي لها. لكن الجمالي كان، منذ فتوته، مسكونا بروح النضال من أجل عراق قوي حر كريم، ومن أجل أمة عزيزة متفتحة. وإنما هذا الهاجس هو الذي جعله يتجاوب مع النظرية التربوية، ويهضمها، ويتطلع إلى الاستفادة منها في معالجة الواقع العربي. وقد حاول ذلك عندما أسندت إليه مسؤوليات حكومية. فاضطلع بها بروح نضالية، بعيدا عن الرتابة، والضوابط التي تفرضها المناصب الرسمية. ذلك أنه كان يؤمن بأن المسؤوليات إنما هي وسيلة لتجسيد المبادئ الفلسفية والأخلاقية التي بدونها لا تستقيم شؤون المجتمع. واقتناعه برسالة التربية في المجتمع هو الذي جعله يعطي الأولوية لطريقة الحوار المفتوح في العلاقات الاجتماعية. فكان من أنصار الحريات داخل العراق. وكان، في علاقات العراق مع أجواره، يغلب منهج التشاور. وكانت له وقائع يرويها في هذا الصدد، ويتضح من بعضها أنه لم يكن على وفاق دائم مع رئيسه نوري السعيد، في خصوص التنظيمات الداخلية، ويستفاد من بعضها أيضا أنه بذلك جهودا شخصية لإقامة تعاون مع الأجوار، وربما للقيام بخطى أبعد من مجرد التعاون.
وذلك راجع إلى أنه كان يولي رابطة الحضارة بين شعوبنا مكانة متميزة ويرى أنها هي القادرة على لم شملها، وتقريب الشقة بينهم. فدعوته إلى إحياء ثقافتنا العربية الإسلامية في جوهر مقومات كان لا شك عن اعتزاز بها، ولكن كان أيضا لإيمانه أنها اللحمة بين شعوبنا ودولنا.

ولئن كان شديد الإعجاب بالثقافة الغربية، فقد كان أيضا حريصا كل الحرص على أصلة ثقافتنا، مع الدعوة إلى إذكائها بما يتلاءم وروحيتها من إيجابيات الثقافة العالمية. وكان يعيب على النظم المدرسية والجامعية عندنا تجاهلها لجذور الأمة. ويضرب لذلك مثلا قلة الاهتمام بتدريس القرآن والسنة في كليات الآداب والقانون والفلسفة، باعتبارها معينا من المعلومات اللغوية والبلاغية والفلسفية والقيم الأخلاقية، لا فقط مرجعا دينيا.
شخصية فاضل الجمالي كانت قوية، متعددة الجوانب، غزيرة الأبعاد. ولكن الذي يغلب عليها هو الوضوح: وضوح الرؤية، ووضوح المقصد،

ووضوح الموقف. أمثال فاضل الجمالي لا يمكن نسيانهم. فبغض النظر عن قوة آرائه، ومتانة معرفته بالأمور، وثبات ذاكرته وهو في العقد العاشر من عمره، فإن للرجل إشعاعا يحببه إلى مخاطبيه، منذ أول لقاء، لبريق لحظه، وجزالة عبارته، ودائم حركته. لا يعرف الكلل، ولا يترك، عند الجلوس إليه، سبيلا للسأم. حديثه شيق، وملاحظاته مثيرة- سواء اتفقت معه أم اختلفت. يلتزم أدب الملوك: لا يأتيك متأخرا، ولا يغادر مستعجلا ولا متراخيا. يعطيك الانطباع أنك أنت المتفضل، سواء زرته أو كان هو الزائر. وفي لأصدقائه، ولو مر عليهم زمن، يذكرهم بخير، ويشيد بخصالهم، ويستذكر أيامهم.

وإني لأعرف محبته لوطنه العراق، وشوقه إلى بغداد، وحنينه إلى بيته على ضفاف دجلة، بما فيه من عزيز الأثاث ونفيس الكتب. وقد غادر العراق في ظروف معروفة، ولم يعد إليه قط. لكنه لازم واجب الحفاظ على الصمت، والإمساك عما يسيء إلى وطنه. وكان ذلك رغبة منه في عدم إحراج تونس، لا شك، ولكن أيضا لخلق فيه كريم، وهمة تربو عن مثل ذلك.

ولم يتعرض لشؤون العراق إلا بعد الهجمة التي أودت بأمنه، وضيقت من عيشه، ونالت من سلطانه على أرضه. فكان عندئذ يدافع عن شعبه، معتبرا أن الحصار الاقتصادي يسيء إلى مبادئ الأمم المتحدة، لأنه يسيء إلى شعب من شعوبها، في قوته وصحته ومستقبل أبنائه. لذلك رفض، سنة 1995، المشاركة في الاحتفال الذي أقامه المنتظم الأممي بمناسبة مرور خمسين سنة على تأسيسه، وكان قد دعي إلى ذلك باعتباره أحد المؤسسين الموقعين على وثيقة سان فرانسيسكو.

الذي يتبادر إلى الذهن، عند الحديث عن فاضل الجمالي، هو حيوية الفكر وحيوية البدن، إلى آخر أيام حياته. ويمكن أن يقال عنه إن اللّه أعطاه بسطة في الجسم والعقل: بسطة في الجسم، بأن متعه بالصحة والعافية طيلة حياته، وبسطة في العقل، لأنه بقي راجح الفكر، ثاقب النظر، إلى أن حان الأجل. وقد حسب يوما، في علته التي مات فيها، أن الأجل حان. فوقف على رجليه، في انتظار الانتقال إلى الرفيق الأعلى. ثم بعد ذلك قال لمتحدث إليه: كرهت أن ألقى الموت جالسا.

كان شديد المراس في الحق، لطيف المشائل في الصحبة والمودة، حيي الطبع، متسامحا في كل ما يتعلق بشخصه، لا يحمل كراهية لأحد. يقنع بالقليل، ويأنف أن يستزيد، مؤمنا من الأتقياء، لكن دون تظاهر ولا رياء، مرحا بالمزاج، أنيسا بالطبع، وحدانيا في الليل، يتفرغ للفكر والقلم والعبادة.

يتقي اللّه في عباده، ويقوم بواجباته في طي الخفاء، يعتبرها من خاصة حاله، وكمين صلته بخالقه.

تحسبه في سعة من العيش، وإنما ذلك من التعفف. أسبغ اللّه عليه شآبيب الرحمة والغفران وبوأه تعالى مكان الصدقين جزاء عما قدمه لأمته مفكرا جليلا، وفارسا من أكبر فرسان هذه الأمة، لن يفي بحقه مجرد الحديث. وإنا للّه وإنا إليه راجعون.

الراحل الدكتور محمد فاضل الجمالي في حوار عمره 35 سنة:

* خروجي من السجن حيا حرا بعد الحكم علي بالإعدام في العراق سنة 1958 نعمة من نعم اللّه تعالى علي

* موقفي من القضية الفلسطينية هو موقف كل إنسان مؤمن بالحق وبالأخلاق وبالقانون الدولي

حاوره عبد السلام لصيلع:

هــذا الحوار مع الراحــل الدكتور محمد فاضــل الجمالي وثيقة تاريخيــة عمره 35 ســنة، فقد نشــر في جريدة "الــرأي العام" الكويتية في عددها الصادر في 26 ماي 1986 وضمنه الدكتور الجمالي في كتابه "مواقف وعبر في سياستنا الدولية – صفحات مــن تاريخنا المعاصــر".. تعيد "المصير" نشــره كاملا كما هو لأهميته، وللوفاء والذكرى لروح شخصية عظيمة وفذة من أبرز شخصيات التاريخ وقادته وزعمائه ومفكريه.. يرحمه اللّه رحمة واسعة.

> إن الحكم علي بالإعدام وبقائي في السجن ما يقرب من الثلاث سنوات ثم خروجي من السجن حيا حرا نعمة من نعم الله تعالى علي أشكر الباري عز وجل عليها.

الدكتـور محمـد فاضل الجمالي مفكر تربوي إسـلامي معـروف بمؤلفاتـه الكثيـرة فـي الشـؤون التربويـة والإسـلامية وكذلـك في الشـؤون الفلسـطينية. وهو مـن القلائـل فـي العالـم الذيـن يعرفون أدق أسـرار الصهيونيـة العالمية منـذ أكثر من نصف قـرن.. فقد كان وزيـرا للخارجيـة في العـراق ثم رئيسـا للوزراء. وبمجيء عبد الكريم قاسـم إلى السلطة نجا من حكم الإعدام بأعجوبة وغادر العراق فاستقر في تونس منذ سـنة 1962 إلى اليـوم ليتفرغ للتأليـف والتدريس في الجامعة التونسـية. لهذا الرجل ذكريات وآراء ومواقف.. حتى نتعرف على بعضها زارته "الرأي العام" في منزله وأجرت معه هذا الحديث:

*** كنتـم مندوبـا للعراق بالأمـم، ووزيـرا للخارجية ورئيسـا للـوزراء، هـل بإمكانكـم أن تتحدثوا عن أهم ذكرياتكم في تلك الفترة وعن الأيام الأخيرة التي قضيتموها في الحكم؟**

- ذكرياتـي المهمة عن الأمم المتحدة ووزارة الخارجية ورئاسـة الوزارة تشكل مجلدا ضخما وأذكر على سبيل المثال المناسبات التالية:

1 - يوم شـاركت في اللجان التـي صاغت ميثاق الأمم المتحـدة فـي مؤتمر سـان فرانسيسـكو سـنة 1945 توفقنـا به بعـد جهد جهيد من درج كلمة "الاسـتقلال" كحق للشعوب المولى عليها والتي كانت ترزح تحت نير الاستعمار في كل من آسيا وإفريقيا.

2 - وضـع المادة "78" فـي ميثاق الأمـم المتحدة التي تقـول : "لا يطبـق نظـام الوصاية علـى الأقاليم التي أصبحـت أعضاء فـي هيئة الأمـم المتحـدة..". وبذلك تحقق استقلال كل من سورية ولبنان وانتهى الانتداب الفرنسي عليهما.

3 - توقيـع معاهدة التعاون والإخاء بين العراق والأردن سنة 1946.

4 - دفاعـي عـن حق ليبيا في الاسـتقلال فـي مؤتمر الصلـح مع إيطاليـا الذي انعقد في قصر لوكسـمبورغ في باريس سـنة 1946 وإقامتي حفلة عشاء كبرى في باريس سنة 1951 بمناسبة نيل ليبيا الاستقلال.

5 - رئاسـتي مجلس جامعة الدول العربية في القاهرة سـنة 1946 وحـل الشـكوى السـورية علـى الأردن بالحسنى. وكان موضوع الشكوى تدخل الملك عبد اللّه

في شؤون سورية الداخلية ودعوته إلى تحقيق سورية الكبرى. ولأول مرة تشـكلت لجنة مـن وزراء الخارجية لحل المشكلة دعيت "باللجنة السياسية" لجامعة الدول العربية.

6 - توفقنا في درج موضـوع الجزائر في القضايا التي بحثتهـا الجمعيـة العامـة للأمم المتحدة بعـد أن كانت تعتبر قضية داخلية لفرنسـا ولا يجـوز للأمم المتحدة معالجتها.

7 - إدخـال عضـو تونسـي ضمـن الوفـد العراقي إلى الأمـم المتحدة بالرغـم من احتجاجات فرنسـا: وفدها وحكومتها ورئيس جمهوريتها.

8 - مقابلـة الرئيـس أيزنهاور في البيـت الأبيض في 15 يوليو 1954 مـن أجل قضيتي تونس والمغرب في الأمـم المتحدة. ثم تحقق اسـتقلال هذيـن القطرين العزيزين.

9 - نجـاح المسـاعي التـي أدت إلـى عقـد مؤتمـر باندونـغ، وموقفي في باندونغ إزاء الاسـتعمار الغربي

* الصهاينة أقوى أثرا وتأثيرا منا لأننا متفرقون وغير مستعدين للتضحية.. وإن مواقفنا السياسية هزيلة ونجابه الغرب مجابهة المستجدي.

والصهيونيــة والشــيوعية العالميــة: باعتبارهــا قــوى معادية للسلام في العالم.
10 - تحقيق الاتحاد الهاشــمي بين العراق والأردن في 1958.

*** نعرف أنكم سـجنتم قبـل خروجكم من العراق، فما هو مدى تأثير تجربة السجن على حياتكم؟**

- إن الحكم علي بالإعدام وبقائي في السـجن ما يقرب من الثلاث سنوات ثم خروجي من السجن حيا حرا نعمة من نعم اللّه تعالى علي أشـكر البـاري عز وجل عليها. كل يوم أصلي ركعتين شـكرا للّه. إن في حياة السجن تربية للإنســان ثمينة إذا عرف كيف يســتثمرها. ففي قراءتي اليومية للقرآن الكريم وتأملي في ذاتي ودرس أحوال المساجين بدأت أعيش عيشة إيمان وطمأنينة مع تقييم جديد لأعمالي وعزيمة صادقة لخدمة أمتي ومن ورائها خدمة الإنســانية. إن تأملاتي في حياتنا الدينية والسياســية والاجتماعية جعلتني أشعر بضرورة إعادة النظر في حياتنا الحاضرة وإصلاح الوضع إصلاحا جذريا على أسس إنسانية. في تعرفي على بعض المساجين وجــدت طيبــة القلب والعاطفــة الكريمة عنــد البعض منهم الأمر الذي جعلني أشعر بأن الذي يستحق السجن ليس هؤلاء المساجين بل المسؤول عن تربيتهم وعن الظروف التي عاشــوا فيها. ففي الســجن دروس قيمة لقادة المجتمع الإسلامي.

*** أنتـم مـن الذيـن دافعـوا ومازالـوا يدافعـون عن القضيـة الفلسـطينية، مـا هـي أبـرز مواقفكـم نحوها، كيف تحللون واقعها الراهن وكيف ترون مستقبلها؟**

- إن موقفــي من القضية الفلســطينية هو موقف كل إنســان مؤمــن بالحــق وبالأخــلاق وبالقانــون الدولي. فالقضية الفلســطينية فيها تجن على الحق الشــرعي لســكان فلسطين الشــرعيين وفيها لا أخلاقية، إذ فيها تطغى القــوة الغادرة على الحــق الصريح، وفيها خرق للقانــون الدولــي الــذي لا يجيــز تقســيم بلــد بالقوة ضد إرادة ســكانه الشــرعيين، فقانون الأمــم المتحدة وميثاقها ديسا تحت أقدام المستعمر بكل عنف وصلف. أمــا موقفــي الشــخصي فكان دومــا موقــف الصراحة والجــرأة فــي الإصــداع، بالحــق اقترحــت ســنة 1947 بإحالة قرار التقســيم إلى محكمة العدل الدولية لتبدي رأيها في مشــروعيته فكانت أكثرية اللجنة السياســية مؤيــدة، لاقتراحــي لــولا منــاورة خبيثة دبرهــا الأمين العــام للأمــم المتحدة، آنذاك "تريغفــي لي" مع رئيس اللجنــة الاســترالي "إيفــات" بــأن أجــل التصويــت إلى الليل فدعــوا العديد من المؤديــن لاقتراحي إلى حفلة عشــاء لكي يجري التصويت في غياب الجماعة. تعادلت الأصوات. فكان رأي الرئيس هو الحاســم بعدم الذهاب لاستشارة الدولية. وقد كتب هانس كلسن وهو يهودي ومن أســاطين القانون الدولي في كتابه "قانون الأمم المتحدة" في حاشــية من كتابه: "إن اعتراض المندوب العراقــي وأيــده الســوري فــي عــدم مشــروعية قرار التقســيم فهو وارد من وجهة قانونيــة بحتة". وإن كل اتصالاتــي مع الجهتين الإنجليزية والأمريكية تبتســم بالقوة والصراحة حول فلسطين. وما زلت أكتب وأخاطب القــوم. وأجاب بالإنصاف أحيانا. وكلــن الصهاينة أقوى أثرا وتأثيرا منا. لماذا؟ لأننا متفرقون وغير مســتعدين للتضحية. وإن مواقفنا السياســية هزيلة. نجابه الغرب مجابهة المستجدي. لو كنا مســتعدين لتضحية مليون شهيد لتحقق السلام بدون سفك دماء. الوصفة لإنقاذ فلســطين واضحــة كل الوضوح فــي القــرآن الكريم. ولكن الذين يقرؤون القرآن منا قلائل. والذين يعملون بما يقرؤون أقل. القرآن الكريم يأمرنا بالاتحاد فيقول: "واعتصمــوا بحبــل اللّه جميعــا ولا تفرقــوا"، ونحــن متفرقــون ثم يقــول: "وأعــدوا لهم ما اســتطعتم من

قوة". ونحن غير مستعدين لام ماديا ولا معنويا، وإذا تسلحنا فسلاحنا لا يوجه لصدور أعدائنا. ثم القرآن الكريم يدعو إلى الجهاد ورد الاعتداء ونحن نتلقى اللطمة تلو اللطمة. مقدساتنا تداس وكراماتنا تهان وليس من يرد. إن وضعنا إزاء فلسطين مزر ومخز ومسؤوليتنا أمام اللّه جسيمة ونسأله تعالى الغفران والهداية إلى تحقيق الاتحاد والاستعداد والجهاد لإنقاذ القدس التي تضم الحرم الشريف.

*** بماذا تنصحون القادة الفلسطينيين؟**

- أنصح القادة الفلسطيين بـ:
أولا: أن يضمنوا استقلال القرار الفلسطيني عن الحكومات العربية. ولهم في ذلك أسوة بجبهة التحرير الجزائرية. فلما قامت الثورة الجزائرية كان التراشق وكيل التهم على أشده بين الحكومتين المصرية والعراقية. فكانت نصيحتي لإخواننا الجزائريين أنذاك بألا يزجوا أنفسهم بين الطرفين ولا يتأثروا بهذه الأجواء المحمومة الت يتشبه غيوما صيفية عابرة بين القطرين الشقيقين. وقد أحسنوا صنعا حين نقلوا مركز القيادة من مصر إلى ليبيا سنة 1956.
ثانيا: أن يتفقوا على وحدة الهدف وعلى تقسيم ساحات العمل بأساليب مختلفة. فبعضها سياسي ودبلوماسي لين وآخر ثوري سري عنيف. ويعمل كل جهده المستطاع فلا تصادم ولا تضارب. القيادة العامة تكون في الجانب السياسي المرحلي وهو يعمل لبلوغ الهدف باستقلال، وكذلك الجانب الثوري السري فإنه يتمتع باستقلاله أيضا. هذا هو التنظيم الذي سارت بموجبه الحركة الصهيونية فالجانب السياسي تولاه حييم وايزمن الرئيس الأول لإسرائيل والجانب "الثوري" تعهده مناحيم بينغن لمنظمة الإيرغون وشامير لمنظمة شترن. لما كان الهدف واحدا ولما كانت الاجتهادات متعددة فليقم تفاهم وتعاون بين الفئات الفلسطينية. أما التصادم والتقاتل بين الإخوان الفلسطينيين فإنهما جريمة تاريخية لمن يرتكبها وشعل فتيلها. ولعنة التاريخ سوف تلحق بالمعتدى.

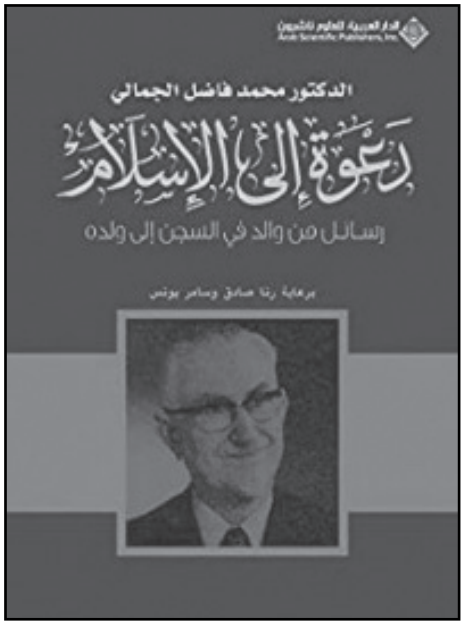

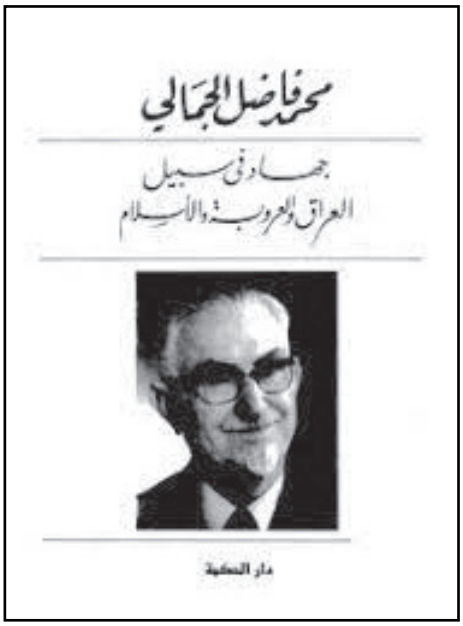

*** أنتم سياسي ومفكر وكاتب.. كيف توفقون بين السياسة والكتابة؟**

- لست سياسيا ولم أكن سياسيا بالمعنى المتعارف في أي دور من أدوار حياتي. بل كنت دوما متعلما ومعلما. والسياسة بمعناها السياسي السامي ما هي إلا القيام بتعليم المبادئ والأهداف والعمل على تطبيقها والدفاع عنها. بهذا المعنى كل إنسان مثقف هو سياسي لأنه يعلم الناس الفضيلة. فهو معلم. ويدافع عنها فهو محام. ولا بد للمعلم من أن يستطيع التعبير عن آرائه كتابة وخطابة. ولذلك فإذا كتبت فأنا أقوم بدور المعلم وليس بدور السياسي بالمعنى المتعارف لأني لا أشتغل في الحقل السياسي منذ أن قامت الثورة العراقية في سنة 1958.

*** وبوصفكم من المتحمسين الأوائل في العصر الحديث لوحدة العالم العربي والإسلامي ما هو تصوركم لإنهاء النزاع الدامي بين العراق وإيران؟**

- إن الصراع الدامي بين الجارتين المسلمتين العراق وإيران هو من أكبر مآسي العالم الإسلامي في عصرنا هذا. فلو ساد الإيمان الصحيح والإسلام الصحيح في العالم الإسلامي لما وجدت هذه الحرب. وإن وجدت لما استمرت هذه المأساة التي.. تدمي القلوب. كنت أتمنى أن.. يتحد الجيشان الإيراني والعراقي لإنقاذ القدس الشريف. بدل أن يهلك مئات الألوف في التقاتل بين الإخوة المسلمين. فما لم نجعل القرآن الكريم هاديا لنا في حياتنا اليومية سياسية كانت أو اقتصادية أو اجتماعية أو أخلاقية فسيبقى المسلمون يعيشون في عالم التخبط والقلق والخصومات. إذن فالعودة إلى القرآن هو الطريق إلى الوحدة وإلا السلام بين العراق وإيران وسائر الأقطار الإسلامية. وإلى أن يتحقق ذلك أرى أن تقوم حكومات إسلامية محايدة بإرسال جيوشها لتقف بين الصفين المتحاربين وتوقف التقاتل بينهما.

*** صادقتم وعرفتم شخصيات سياسية عربية ودولية كثيرة، هل تذكرون أبرزها؟**

- عرفت العشرات من السياسيين العظماء في عالم السياسة أذكر على سبيل المثال: فيصل الأول ملك العراق – ومحمد الخامس ملك المغرب – والحبيب

بورقيبة رئيس الجمهورية التونسية – وفيصل بن عبد العزيز ملك السعودية – ومصطفى كمال مؤسس تركيا الحديثة – وعدنان مندرس رئيس وزراء تركيا – ولياقت علي خان أول رئيس وزراء للباكستان – وعلي أصغر حكمت وزير خارجية إيران – والرئيس إيزنهاور رئيس الولايات المتحدة – وأرنست بيفن وزير خارجية بريطانيا.

*** ما هي أمنيتكم في الحياة؟**

- أن أرى:

-1 تحقيق الاتحاد التحالفي بين الأقطار العربية.

-2 السير في سبيل توحيد العالم الإسلامي.

-3 أن يسود العالم السلام على أسس الإخاء والحق والخير والحرية للجميع.

*** ما هو كتابكم القادم؟**

- إذا أبقاني اللّه حيا سيكون كتابي القادم حول اختباراتي في السياسة العربية وربما يكون عنوانه "خبرات وآراء في السياسة العربية".

*** متى ستكتبون مذكراتكم الشخصية؟**

- ليس لدي متسع من الوقت لكتابة مذكراتي الشخصية عن العراق وعن حياتي. هناك أستاذ أمريكي مشغول بوضع كتاب عن حياتي أما مذكراتي عن الشؤون العربية فهي جاهزة باللغة الإنجليزية ولم تنشر، وهناك محاولة لترجمتها إلى العربية ونشرها.

مستقبل العالم العربي والإسلامي

*** كيف ترون مستقبل العالم العربي والإسلامي؟**

- إني من المتفائلين في المستقبل. ذلك لأن القرآن الكريم كتاب اللّه الخالد "وقد قصرنا في تعليمه والعمل بموجب أحكامه" سيهدينا إلى طرق الاتحاد والاستعداد والجهاد. يضاف إلى ذلك أن التطورات الدولية وموقعنا الجغرافي سيدفعنا إذا توفرت لدينا تربية حركية علمية تقنية إلى التفكير والتخطيط والتوحيد. فتستعيد أمتنا العربية وحدتها وموقعها في العالم الإسلامي المترابط والموقع الدولي الممتاز من أجل بناء الإنسان الذي يحمل رسالة الإسلام للعالم. رسالة الإخاء والحق والخير للجميع.

نظرة في:
أزمة الثقافة والمثقفين في عالمنا العربي

الدكتور محمد فاضل الجمالي

لما كانت كلمة "الثقافة" من الكلمات الغنية ذات المعاني المتعددة يجدر بنا أن نبدأ بتعريف الثقافة التي يتناولها بحثنا هذا: الثقافة في رأينا هي محصل التأثيرات التي تحدثها التربية في حياة الإنسان كفرد وكجماعة. ولو شبهنا التربية بعملية غرس في حياة الإنسان يتولاها البيت والمسجد والمدرسة والبيئة الاجتماعية والطبيعية فالثقافة تكون الحصاد الذي ينتج من ذلك الغرس. فإذا كانت البذرة من النوع الجيد وكانت التربة صالحة والأرواء والغذاء متوفرين يكون الحصاد ممتازا. أما إذا كانت الأرض قاحلة والبذرة هزيلة والأرواء والوقاية قليلين فالحصاد يكون ضئيلا. كذلك الثقافة. فجودة الثقافة تتوقف على نوع التربية التي يقدمها المجتمع أفراده. فالمجتمعات الحية الراقية تنتج ثمرا إنسانيا شهيا، والبلاد السائرة في

> **الثقافة المقتبسة من الغرب اقتباسا مستعجلا وبدون فحص أو تدجين لم تنسجم مع الثقافة الإسلامية التي لم تتشرب العلوم الحديثة بعد.**

طريق النمو تسعى جاهدة لتحسين نوعية ثقافتها.

هناك صلة عضوية بين التربية والثقافة. فالثقافة هي بنت التربية، فإذا كانت التربية صالحة سليمة تكون الثقافة جيدة والعكس بالعكس. ونود أن نؤكد على أن التربية لا تقتصر على المدرسة فالبيت والبيئة الاجتماعية والطبيعية كلها تثقف الإنسان. وربما كان أرقى أنواع التربية ما يوجه الإنسان ليربي نفسه (التربية الذاتية) فيعمل على النمو الذاتي المستمر، فكم من أديب مبدع وعالم مخترع وفيلسوف بارز لم تنتجه المدرسة ولكنه ربى نفسه بنفسه فأصبح في عداد المشاهير.

هذا وأن المثقفين يمثلون وجدان الأمة ودماغها المفكر وقوتها العاملة. فإن ارتقوا ارتقت الأمة وإن هزلوا انحطت. وبمستوى المثقفين في أي بلد يحكم على مستوى التربية عامة والتعليم خاصة في ذلك البلد.

مكافحة التخلف الثقافي

لا جدال في أن المستوى الثقافي في عالمنا العربي ما يزال هابطا. فنحن نعيش عالة على الغرب فيما نأكل وما نلبس وما نصنع وما ندرس وما نركب وما نتطبب الخ.. ومازلت أتذكر كلمات لجبران خليل جبران في كتابه "بستان النبي" تقول: "ويل لأمة لا تنتج ما تأكل ولا تنسج ما تلبس الخ.." ونحن نضيف "ولا تصنع ما تركب ولا تقرأ ما تكتب الخ.." عالمنا العربي غني بالقابليات والعبقريات ولكن الكثير منها ضائع أو مهمل. والبارزون على مستوى عالمي قليلون جدا بالنسبة لسعة رقعة البلاد العربية. والعديد من هؤلاء القلائل غير معروفين خارج حدود أقطارهم وقد يكتسبون شهرة إذا هجروا أوطانهم وعملوا في ديار الغرب.

ربما كانت أعظم مشكلة تجابه الثقافة في العالم العربي هي مشكلة توحيدها: ففي العالم العربي ثقافات متعددة متضاربة سببها اختلاف سرعة التطور الاجتماعي بين بلد عربي وآخر، وتعدد مصادر الاستيراد الثقافي في البلاد العربية المختلفة.

فالثقافة المقتبسة من الغرب اقتباسا مستعجلا وبدون فحص أو تدجين لم تنسجم مع الثقافة الإسلامية التي لم تتشرب العلوم الحديثة بعد. مع علمنا بأن الدين الإسلامي دين شمولي وتوحيدي، دين يدعو إلى درس الكون والطبيعة وتنظيم الحياة الاجتماعية السليمة كما يدعو إلى غرس العقيدة والتعبد. فالصراع بين العلمانية والدين في المجتمع الإسلامي هو أمر غير وارد وناتج عن تفكير يعوزه التعمق.

وقد نلمس خلافا في وجهات النظر بين المثقفين محليا وبين القادمين من الغرب أحيانا. وبين من تثقف في فرنسا ومن تثقف في بلاد سكسونية أو الاتحاد السوفياتي مثلا. كما قد نجد فجوة بين المتعلمين وغير المتعلمين من أبناء الشعب، وذلك لضعف الاتصال والتفاعل الإيجابي بين الطرفين.

وباختصار نقول إن الثقافة العربية تعاني من آلام التفتيت والتشتيت بسبب تعدد مصادر الثقافة وجهل اللغات وتضارب السياسة والفلسفات والعقائديات. والأمر خطير بالنسبة

لوحدة الأمة وقوتها ومناعتها وازدهارها.
إن الشعوب العربية اليوم تعمل جاهدة في سبيل القضاء على التخلف الثقافي وهي تمر بتجارب في شتى حقول الحياة وفي مقدمتها حقل التربية والتعليم. فأول مهمة تجابه قادة الفكر في البلاد العربية هي التحري عن فلسفة تربوية تتسم بالشمول والتوحيد والاتزان، وتستهدف الرقي والإبداع، ثم البحث عن المشاكل المادية والإدارية التي تعكر الأجواء الثقافية وتعطل دواليبها. وها نحن فيما يلي نذكر على سبيل المثال لا الحصر نماذج من هذه المشالك:
(1) الفقر والأمية: إن برامجنا التربوية تغلب عليها صفة اللفظية الحفظية فهي تنتج ثقافة استهلاكية اتكالية أكثر مما تنتج ثقافة عملية انتاجية، فهي بطيئة في رفع مستوى عيش الشعب، فلا تقضي بالسرعة المطلوبة على الفقر والأمية.
هذا وأن الفقر والأمية المنتشرين في شتى أنحاء العالم العربي اليوم لا يساعدان على ترويج الإنتاج الفكري والنفي بين أفراد الشعب. إذ قل من يقرأ، ومن يحسن القراءة ليس لديه المال ليشتري الكتاب، مع أنه قد يصرف على الدخان ما يكفي للإضرار بصحته وباقتصاد أسرته.
(2) حاجتنا إلى منظمات ثقافية تقدر ما يصدر من إنتاج علمي أو فكري أو أدبي أو فني فتتناوله بالنقد والتعريف. فالقيم الثقافية في وطننا العربي تكاد تكون في مهب الريح فبعض الكتب والكتب ينالهم شيء من النقد، وآخرون يهملون وصحافتنا قليلة الاهتمام بالتعريف بالكتب.
(3) إن المنتجين في الحقل الثقافي يقاسون المصاعب في ترويج انتاجهم والمؤلفون قد يشكون مر الشكوى من بعض دور النشر. ودور النشر بدورها قد تشكو من ارتفاع أسعار التصدير والاستيراد. والمتضرر الأول هو الثقافة العامة.
(4) إن ضعف الاتصال الثقافي بين البلاد العربية وصعوبة تصدير الكتب واستيرادها يحرم الكثيرين من أبناء بلد عربي من الاطلاع على ما يصدر في بلد عربي آخر. والمثقف على وجه العموم لا يستطيع الحصول على ما يريد من بلد عربي آخر بسهولة ما دامت مشاكل الاستيراد والتصدير لم تحل بين البلاد العربية وما لم تكن لنا سوق ثقافية عربية موحدة.. ويصدق القول بصورة أقوى على ما يراد استيراده من بلد غير عربي. فما على المثقف العربي إلا أن يكون مجاهدا حقا في سبيل العلم ليطلع على ما يريد.
(5) الأوضاع السياسية قد تصبح عقبة في طريق الثقافة حين تحدث انقلابات عسكرية أو حكم سلطوي بوليسي، وحين تسلط الرقابة على ما يكتب وعلى ما يستورد في هذا البلد العربي أو ذاك فالمثقف العربي قد يحرم من قراءة ما يريد أو من كتابة ما يريد ذلك إذا لم يكن في عداد غير المرغوب فيهم فيودع السجن. ولذلك فقد نجد ألوف المثقفين العرب قد هجروا أوطانهم طلبا للحرية والسلامة. هم ينتحبون في بلاد أجنبية.
(6) ضعف المكتبات العامة وعدم توفر المراجع كلها وغياب الفهارس عن الكتب الصادرة في العالم أجمع. وبهذه المناسبة أروي خبرتين من خبراتي في هذا الصدد:

الأولى: في سنة 1929 نشر لي الأستاذ ساطع الحصري في "مجلة التربية والتعليم" كتابا كنت ترجمته عن الإنقليزية لأستاذي الجليل وليام كلباترك عنوانه "التربية لأجل حضارة متبدلة" صدر هذا الكتاب في بغداد. وفي سنة 1967 وأنا أزور مكتبة في الدار البيضاء في المغرب وإذا بالكتاب عينه مترجما في مصر يظهر أمامي بعد سنوات عديدة من ترجمتي للكتاب، فالأستاذان الفاضلان في مصر لم يكونا على علم بترجمتي للكتاب كما أني لم أكن لا علم بترجمتهما.

الخبرة الثانية: أعرف للكاتب الإنقليزي جورج أورول كتابين أحدهما "1984" والآخر "مزرعة الحيوانات" حاولت أن أعرف إن كان هذان الكتابان قد نقلا إلى العربية أم لا فلم يستطع أحد أن يسعفني في ذلك حتى ذهبت إلى المكتبة الوطنية في مدينة زوريخ (سويسرا) حيث توجد فهارس لكل الكتب الصادرة في العالم فوجدت أن الكتابين قد ترجما إلى العربية في مصر.

إن توفر المراجع المنوعة والدليل العام لما نشر من كتب في العالم ضروريان لكل دراسات

الاختصاص وإعداد أطروحات الدكتوراه في الوطن العربي.

(7) مشاكل المثقفين: لما كان رفع مستوى الثقافة في أي بد نام يتوقف على قيام المثقفين أنفسهم بهذه المهمة فمن حق المجتمع عليهم أن يتحلوا بما يقرب من الكمال في مؤهلاتهم العلمية والخلقية والوطنية ولكن ذلك غير ميسور لأي إنسان فلم ينج أحد من المثقفين في العالم من بعض النقائص مهما كان رفيع المنزلة. وها نحن فيما يلي نشير إلى بعض المأخذ على بعض أفراد الأسرة الثقافية التي ننتمي إليها:

(أ) تراخ في السلوك الشخصي كضبط الأوقات واتقان الواجب والتجرد من المحاباة وضعف الشعور بالمسؤولية.

(ب) قلة الاعتناء بالصحة الشخصية في الأكل والرياضة وساعات العمل وأوقات العبادة أو الراحة والابتلاء بالتدخين.

(ج) تراخ في المقاييس العلمية والروح المهنية. وندرة التعاون مع الزملاء والتلاقي فيما بينهم، والحسد عند البعض لا سيما حول الترقية أو لإشغال منصب إداري مما يدل على ضعف في الروح الرياضية.

(د) الاستخفاف باللغة القومية وجهل اللغات.

البعض ممن درسوا في بلاد أجنبية قد يجهلون لغتهم القومية، فهم يكتبون ويدرسون بلغة أجنبية والبعض الآخر يحسن لغته القومية ولكنه حين يستعملها يوشحها بكلمات أجنبية، وفي العربية ما يقابل من الكلمات في المعنى. والعربية يفهمها القارئ العادي ولا يفهم الكلمة الفرنسية بل يحفظها ويرددها كما يفعل الببغاء. ومن هذه الكلمات "الرسكلة" و"الفيودالية" و"الرينسانس" و"الأنطلوجية" و"السوسيلوجية" و"الأليكسو" و"الأسيسكو" الخ. إنها مشكلة ثقافية يوجدها المثقفون الدارسون في الخارج. ولا نعرف إذا كان ذلك تباهيا وأعلانا بأنهم درسوا في الخارج أم لكسل يقعدهم عن التحري عن الكلمة العربية التي نعتز بها. هذه مشكلة المثقف الذي درس في الغرب أما المثقف الذي درس في بلده وهو لا يحسن لغة أجنبية واحدة على الأقل فهي أدهى وأمر. إن أزمة اللغة في حقل الثقافة العربية أزمة حقيقية.

(هـ) الانغلاق: إن بعض المثقفين قد يمنون بالاكتفاء بما درسوه في حياتهم الجامعية فهم لا يقتنون كتابا جديدا إلا للضرورة القصوى، والبعض منهم يقول صراحة إنه لا يطالع الجرائد أو المجلات، وإذا طالع فإنه يطالع جريدة أجنبية أو كتابا كتب باللغة الأجنبية.

(و) الاستعلاء: إن بعض المثقفين قد يمنون بالغرور والاعتداد بالنفس لا سيما إذا سلطت أنوار الدعاية عليهم أو على أعمالهم وهم بذلك ينسون قوله تعالى: "وفوق كل ذي علم عليم".

(ز) ضيق الأفق الثقافي: إن البعض من أهل الاختصاص قد ينغمسون في موضوع اختصاصهم، فهم لا يعنون بقضايا قد تمس حياتهم وحياة أمتهم فلا تهمهم الأحداث العالمية ولا يشاركون في الحياة السياسية والاجتماعية.

(ج) الببغائية: إن بعض المثقفين ثقافتهم لفظية حفظية فهم متعصبون لما حفظوه في

حياتهم الدراسية ولم يتعودوا على التفكير الحر والحوار المنطقي. إنهم تعلموا رأيا واحدا ولا يستطيعون أن يتزحزحوا عنه. إن أمثال هؤلاء المتعصبين من اليمين أو اليسار يشكلون مشكلة ثقافية حقة.

(ط) ضبابية الولاء: يعاني الكثيرون من المثقفين من عدم وضوح الانتماء والولاء. هل هم قطريون؟ هل هم مغاربيون؟ هل هم عروبيون؟ هل هم مسلمون؟ هل هم عالميون؟ ونحن نقول لهم إنكم كل ذلك لكنكم لا تعلمون.

(ي) حمل الرسالة: إن بعض المثقفين لا يحملون رسالة واضحة لأمتهم وللإنسانية جمعاء. فهناك المنسحب وهناك اليائس وهناك اللاأبالي، وحمل الرسالة في نظرنا شرط أساسي من شروط أية ثقافة حية.

مجابهة أزمة الثقافة والمثقفين في العالم العربي

المأمول من الوزارات المختصة والهيئات الثقافية في البلاد العربية كافة أن تتآزر في إزالة العقبات وسد الفجوات في حياتنا الثقافية، وأن تضع أهدافا لثقافتنا القومية تؤسس على الاعتزاز بشخصياتنا العربية الإسلامية وعلى السير قدما في سبيل العلم والاكتشاف والابتكار والإبداع، وأن تضع لمثقفينا صورة تمثل الحد الأدنى لما يؤمل أن يحققوه. وها نحن فيما يلي نقترح بعض المزايا التي نرجو أن يتصف بها المثقف في عالمنا العربي.

(1) إنه إنسان يتمتع بالفكر النير والعاطفة النبيلة والإرادة القوية: إنسان تتغلب إنسانيته على بهيميته وتسيطر عليها.

(2) إنه إنسان يحمل رسالة وروحية توجه حياته في سبيل الخير والحق والجمال.

(3) إنه إنسان يعتز بذاته وإنتمائه لأمته وما تمثله من قيم حضارية يحملها لبني الإنسان في كل مكان.

(4) إنه متفتح على الطبيعة وعلى الكون مدرك ما فيهما من أسرار وقوى تخضع لنواميس ثابتة يسعى لاكتشاف ما يستطيع منها لخير بني الإنسان.

(5) إنه يؤمن بالمحبة والأخوة بين بني الإنسان فهو اجتماعي في حياته يتعاون مع الغير ويراعي حقوق الآخرين.

(6) إنه يحب الدرس والإطلاع ويتابع النمو المستمر للمعرف والخبرات والاختراعات البشرية.

(7) إنه يحب الجمال ويتمتع بالفنون الجملية وينشر السرور والإنشراح ويشجع الابتكار والإبداع.

(8) إنه يعنى بصحته وسلامته العقلية والجسدية، ويتجنب كل ما يعرض صحته وحياته إلى الخطر. يعيش عيشة نظيفة معتدلة ويراعي قواعد حفظ الصحة.

(9) إنه يحب العمل ويحترم العامل مهما كان اختصاصه، ويتقن عملا نافعا يدر عليه الرزق الحلال، ليؤمن به معيشته من يعيل.

إنه مستعد دوما لفحص الذات وتنميتها وتقويم إعوجاجها (متسلحا بالإيمان باللّه وبالأخلاق الفاضلة) وتجنيدها لتحقيق السمو والرقي لامته وللبشرية جمعاء.

وأخيرا نقول: الحمد للّه الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا اللّه.

شهدت وقوع المأساة الفلسطينية

الدكتور محمد فاضل الجمالي

لقد عشت المأساة الفلسطينية من أولها إلى يومنا هذا. ففي سنة 1917 (أي قبل سبعين سنة) وأنا في السنة المنتهية من الدراسة الابتدائية شهدت احتلال الانكليز لمدينة بغداد وسمعنا عن غدر الانكليز بحلفائهم العرب بإصدار تصريح بلفور. فعشت القضية الفلسطينية من ذلك التاريخ وبدأت في الدفاع عن الحق الفلسطيني يوم ساهمت في إدارة التعليم في العراق ثم لما انتقلت إلى وزارة الخارجية العراقية. ومازلت أعيش مع المأساة الفلسطينية وأدافع عن الحق العربي في فلسطين بكل ما أوتيت من حجج منطقية ووضح بيان. لن أتحدث عن كل خبراتي في القضية الفلسطينية خلال مدة تقارب الستين سنة إذ ذلك يتطلب ليالي وأيام. بل سأقتصر في حديثي على إلقاء نظرة طائر على خبراتي في القضية الفلسطينية خلال خمس سنوات من 1942 – إلى 1947 أي من صدور المنهج الصهيوني في مؤتمر بلتمور إلى قرار الأمم المتحدة الغاشم بتقسيم فلسطين سنة 1947.

1) الأولى من سنة 1942 حين صدرت مقررات مؤتمر بلتمور الصهيوني (في نيويورك) إلى نهاية مؤتمر الأمم المتحدة المنعقد في سان فرانسيسكو سنة (1945).

2) الثانية: من مؤتمر سان فرانسيسكو إلى تاريخ عرض بريطانية القضية الفلسطينية على الأمم المتحدة سنة (1947).

3) الثالثة: قضية فلسطين أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة سنة 1947.

ما جرى في المرحلة الأولى باختصار:

خلال الحرب العالمية الثانية استغلت الصهيونية الأمريكية اضطهاد هتلر لليهود أعظم استغلال. فبدأت المزايدات بين الأحزاب في انتخابات رئاسة الجمهورية الأمريكية. فصار الحزب الجمهوري يتبارى مع الحزب

ولد الطاهر الحداد بتونس سنة 1899، وابوه أصيل مدينة الحامة بقابس – كانت دراسته في الكتاب فحفظ القرآن ثم التحق بالخلدونية حيث انخرط في الجامعة الزيتونية سنة 1911 – وأنهى دراسته بالزيتونة سنة 1920

الديمقراطي في المساعدات التي سيقدمها ليهود أوروبا للهجرة إلى فلسطين. ويدعو إلى فتح أبواب فلسطين للهجرة اليهودية غير المحدودة.
وفي أوائل سنة 1942 كتب الدكتور حايم وايزمان رئيس الوكالة اليهودية آنذاك مقالا في مجلة الشؤون الخارجية (الأمريكية) يطلب فيه ادخال مليوني مهاجر يهودي إلى فلسطين. كما صدرت بعد ذلك كتب ومقالات يدعو فيها كاتبوها ترغيب عرب فلسطين في الرحيل إلى العراق لتتسع فلسطين لأكبر عدد ممكن من المهاجرين اليهود. وقد تبلور المنهج الصهيوني آنذاك في مقررات المؤتمر الصهيوني المنعقد في أوتيل بلتمور (في مدينة نيويورك) في مارس 1942 وهاهي خلاصة المهج:
1) رفض الكتاب الأبيض البريطاني الصادر سنة 1939 (والذي يقضي بتحديد الهجرة اليهودية إلى فلسطين بـ75 ألف تقسم على خمس سنوات. أي يدخل فلسطين خمسة عشر ألف في السنة ثم توقف) رفضا باتا وعدم الاعتراف بمشروعيته القانونية أو الأدبية.
2) فتح أبواب فلسطين على مصاريعها للهجرة اليهودية.
3) منح سلطة إدارة الهجرة إلى فلسطين إلى الوكالة اليهودية.
4) اعتبار فلسطين دولة يهودية ضمن نظام العالم الديمقراطي الجديد.
ولتنفيذ هذا المنهج قامت الصهيونية العالمية بالتعبئة المكثفة في الحقل السياسي والدعائي في كل من الولايات المتحد وبريطانيا.
أما في الحقل العسكري فقد دخل الصهاينة في جيوش الحلفاء لكسب التأييد من جهة ولغرض التدريب واكتساب الخبرة العسكرية من الجهة الأخرى. كما قاموا بتأسيس تنظيمات عسكرية وتدريب عسكري لشبابهم. فكان لديهم نحو الخمسين ألف جندي تحت السلاح وكان في وسعهم أن يضاعفوا هذا العدد إذا اقتضى الأمر. كما كانت لديهم معامل أسلحة ولا سيما لصنع القنابل اليدوية. ورشاشات ومدافع حصلوا على البعض منها من جيوش الحلفاء بطرق سرية.
ثم أنهم أسسوا منظمات سرية إرهابية مثل عصابة الإيرغون (ويتزعمها مناحيم بيغن) وعصابة الشترن ومن أقطابها (شامير). وصاروا يمارسون الإرهاب ضد عرب فلسطين وضد الحكومة البريطانية. فنسفوا فندق الملك داود (في القدس) وقتلوا (اللورد موين) وزير الدولة البريطاني (المقيم في القاهرة). وأهانوا الجيش البريطاني والقضاء البريطاني بوسائلهم البريطاني بوسائلهم الإرهابية بشكل فظيع.
وفي الوقت الذي تعاظم فيه النشاط الصهيوني في كل من أميركا وأوروبا وازداد الإرهاب الصهيوني في فلسطين المحتلة. كان العرب في حالة ضعف وعدم اطلاع كاف على ما يقوم به الصهاينة في كل من أوروبا وأمريكا وعدم استعداد لمجابهة ذلك. فلم تكن سوري ولبنان قد استقلتا بعد. وكان الأردن ما يزال تحت الانتداب البريطاني وكانت كل من مصر والعراق تحت النفوذ العسكري البريطاني بسبب الحرب العالمية. ومع ذلك فلم يقصر العرب في التفكير والاهتمام بالقضية الفلسطينية مع أن "اليد قصيرة". ومن جملة ما قام به العرب توجيه رسائل متماثلة من كل من الملك عبد العزيز آل سعود والوصي على عرش العراق الأمير عبد الإله إلى الرئيس روزفلت دفاعا عن حق عرب فلسطين. ثم أن الملك عبد العزيز قد اجتمع بالفعل مع الرئيس روزفلت. وتهد الرئيس روزفلت (في رده على الرسالتين) بأن الولايات المتحدة لن تتخذ قرار بشأن فلسطين قبل استشارة الجانب العربي.
ثم بذلت جهودا لتأسيس جامعة الدول العربية فتأسست في بداية 1945. ثم أسست مكاتب للدعاية ودفاعا عن عروبة فلسطين في كل من واشنطن ولندن بإدارة السيد موسى العلمي من شخصيات فلسطين الممتازة. ثم سعت الدول العربية المستقلة لدى كل من الولايات المتحدة وبريطانيا لتحقيق استقلال سوريا ولبنان وإنهاء

الانتداب الفرنسي عليهما.
لم يكن لدى الدول العربية استعداد عسكري يذكر سوى ما هو ضروري لحفظ الأمن الداخلي. كما أن الصوت العربي في الغرب كان ضعيفا جدا.
في هذه الأدواء دعيت خمس دول عربية إلى مؤتمر الأمم المتحدة في مدينة سان فرانسيسكو (الولايات المتحدة) حيث أقر ميثاق الأمم المتحدة. والدول الخمس هي مصر والعراق والسعودية وسوريا ولبنان. وفي مؤتمر سان فرانسيسكو سعينا بكل قوة لوضع نص خاص في الميثاق يحمي حقوق الأكثرية العربية في فلسطين فلم نتوفق. إذ كان الوفد الأمريكي يحتوي على وفد صهيوني يرأسه عضو الكونغرس (سول بلوم) يجلس خلف الوفد الأمريكي يوجه موقف الوفد الأمريكي إزاء قضية فلسطين. لم تحصل على نص خاص في الميثاق يحمي عروبة فلسطين ولكن عروبة فلسطين محمية بصورة صريحة بمبادئ ميثاق الأمم المتحدة ذاته. فالميثاق يعترف بحق تقرير المصير وحقوق الإنسان لكل شعوب الأرض ومن ضمنهم شعب فلسطين. في تلك السنة 1945 انتهت الحرب العالمية الثانية والصهيونية متحفزة ناشطة معبئة تعبئة كاملة. والعرب غير مقدرين أخطارهم تقديرا كافيا وغير مستعدين لمجابهتها.

المرحلة الثانية:

تقع فيما بين سنة 1945 و1947 وفيها برز الكفاح الصهيوني من أجل هجرة يهود أوروبا إلى فلسطين بوضوح. كما اشتد الضغط الأمريكي على الحكومة البريطانية لتفتح أبواب فلسطين للهجرة اليهودية بلا تحديد. وأصر الرئيس "هاري ترومان" رئيس الولايات المتحدة على إدخال مائة ألف مهاجر كدفعة أولى. وقعت مجابهة عنيفة بين المستر بيفن (وزير خارجية حكومة العمال البريطاني) وبين الرئيس ترومان. فقد وجد المستر بيفن أن فلسطين ليست الحل للمشكلة اليهودية وإنها لا تستوعب هذا العدد من المهاجرين وأن الهجرة هذه فيها اعتداء على الشعب العربي. قاوم المستر بيفن الهجرة اليهودية مقاومة عنيفة فمنعت الباخرة الصهيونية التي كانت تحمل المهاجرين غير الشرعيين إلى فلسطين من إنزالهم في حيفا.
ولما كانت بريطانيا في حاجة إلى مساعدة أمريكا في انعاش حياتها الاقتصادية بعد الحرب ولما كان مشروع "مارشال" على الأبواب فقد توصلت إلى حل أزمة الخلاف مع ترومان حول الهجرة بالاتفاق على تشكيل لجنة تحقيق "انكلو- أمريكية" تقوم بدرس الظروف المحيطة بالموضوع وتقرر إمكانية ادخال مائة ألف مهاجر فلسطيني أو عدمها.
قدمت اللجنة إلى القاهرة واستمعت في فندق "ميناهاوس" إلى ممثلين لوجهة النظر العربية والإسلامية. وقد حضرت (من العراق) لإدلاء الشهادة باسم الحكومة العراقية ففندت كل المدعيات والمزاعم الصهيونية ودافعت عن عروبة فلسطين. ودعوت اللجنة باسم الحكومة العراقية للقدوم إلى بغداد للاستماع إلى أراء العراقيين ومن ضمنهم زعماء الجالية اليهودية في بغداد. فكان ذلك. وهنا تجدر الإشارة إلى أن اللجنة كانت تضم أعضاء من حملة الفكر الصهيوني ودعاته مثل المستر "كروسمان" من بريطانيا والمستر "ماكدونالد" من الولايات المتحدة الأمريكية. فلا عجب إذا ما جاء تقرير اللجنة مؤيدا لدعوة الرئيس ترومان بإدخال مائة ألف مهاجر إلى فلسطين !
بعد صدور تقرير اللجنة القاضي بإدخال مائة ألف مهاجر يهودي إلى فلسطين عقدت جامعة الدول العربية اجتماعا خاصا في بلودان "سوريا" سنة 1946 قررت فيه تحذير كل من بريطانيا العظمة والولايات المتحدة من مغبة التمادي في الاعتداء على الحق العربي في فلسطين بفتح أبواب فلسطين للهجرة اليهودية. وأن ذلك سيؤدي إلى الإضرار بالعلاقات والمصالح السياسية والاقتصادية التي تربط الأمة العربية بهاتين الدولتين. وهددت بإعادة النظر في المصالح والامتيازات الاقتصادية التي تتمتع به الدولتان في البلاد العربية. لم تكن مقررات الجامعة

فـي بلودان كافيـة في نظرنا. وما دعـى بالمقررات السـرية التـي اتخذت في اجتماع بلـودان لم تكن إلا "طبـلا فارغا" كما يقول المثل الدارج والاسـتخبارات البريطانية والأمريكية كانت تعرف ذلك ولا شك.

لقـد اقتـرح الوفد العراقـي في بلـودان قطع النفط العربـي وتخصيـص مبالغ للدعايـة وإنقاذ الأراضي وتسـليح الفلسـطينيين فلم يؤخذ بالاقتراح. ولذلك فقـد تمادت الولايات المتحدة وعلى رأسـها المسـتر ترومـان في دعـم الجانـب الصهيوني على حسـاب الحق العربي بلا اكتراث.

قدمـت الـدول العربيـة مذكـرات احتجـاج لـكل من بريطانيـا والولايات المتحـدة الأمريكيـة ولما كانت المذكـرة العراقية إلـى الحكومـة البريطانية عنيفة اللهجـة رجـا السـفير البريطاني في بغداد سـحبها والاكتفـاء بالإنذار الشـفهي حفظا لحسـن العلاقات بيـن البلديـن. أما السـفير الأمريكي فقـد وجهنا له سـؤالا عن المسـتند القانوني الذي يسـمح لأمريكا بأن تتدخل في شـؤون فلسـطين فهي ليسـت دولة منتدبة على فلسـطين وليس مـن حقها أن تتصرف في شؤون بلد ضد إرادة الأكثرية من سكانه.

بعد اجتماع مجلس جامعة الدول العربية في بلودان دعت الحكومـة البريطانية الدول العربية إلى مؤتمر يعقد في لندن لمعالجة القضية الفلسطينية. فكنت علـى رأس الوفد العراقـي إلى ذلـك المؤتمر. وبعد اجتماعـات عديـدة وخطـب صريحـة مـن الجانبين العربي والبريطاني. وضعت الوفود العربية مشروعا لدولـة فلسـطينية مسـتقلة أكثريـة سـكانها عرب يتعايش سكانها على أسس ديمقراطية. أما الحكومة البريطانيـة فكانت قدمت مشـروعا تقـوم بموجبه حكومـة مزدوجـة القوميـة بمـا يشـابه الكانتونات السويسرية. ولما كانت الحكومة البريطانية قد دعت الوكالـة اليهودية للاجتماع بها على حدة. فقد رفض الصهاينـة كلا المشـروعين العربـي والبريطانـي. كما أن الـدول العربية رفضت المشـروع البريطاني وتمسكت بمشروعها. لم ترض الحكومة البريطانية أيا من الهجتين العربية أو الصهيونية فوجدت نفسها بيـن جبهتين متناقضتيـن أحدهما الجبهـة العربية التي تربطها بالحكومة البريطانية مصالح سياسـية واقتصادية وعسـكرية والأخـرى الجبهة الصهيونية التي تدعمها الولايات المتحدة الأمريكية كما تدعمها التنظيمـات الصهيونيـة فـي بريطانيـا ذاتهـا وهي لا تقـل أهميـة للحكومـة البريطانيـة عـن الجبهة العربية مـن حيث المصالح السياسـية والاقتصادية والعسـكرية. وللخروج من هذا المأزق قرت الحكومة البريطانيـة التخلـص مـن المشـكلة الفلسـطينية بإحالتها على منظمة الأمم المتحدة.

المرحلة الثالثة:

بنـاء على طلـب مـن الحكومـة البريطانيـة عقدت الجمعيـة اجتماعـا خاصا في ربيـع 1947 للنظر في القضيـة الفلسـطينية حضرها إلى جانـب الأعضاء ممثـل عـن الهيئـة العربيـة العليا لفلسـطين وهو السيد جمال الحسيني كما حضرها ممثل عن الوكالة اليهوديـة. كان عدد الدول العربية في الأمم المتحدة آنذاك خمسة وكان يرأس وفود هذه الدول السادة:

- فارس الخوري: سوريا.
- الأمير فيصل بن عبد العزيز: العربية السعودية.
- محمود حسن باشا: مصر.
- الدكتور شارل مالك: لبنان.
- الدكتور محمد فاضل الجمالي: العراق.

قامت الوفود العربية والوفود المحبة للحرية ببسـط القضية الفلسـطينية مدافعة عن عروبة فلسـطين ومفنـدة المدعيـات الصهيونية. وأيدتهـا العديد من الـدول المحبـة للحريـة وفـي مقدمتها الهنـد (ولم تكن قد انقسـمت إلى الهند وباكسـتان بعد) وإيران وأفغانسـتان وتركيـا.. بعـد الاسـتماع إلـى وجهات النظر المتعارضة من العرب ومؤيديهم والصهيونية ومؤيديها قررت الجمعية العام تشـكيل لجنة تحقيق لـدرس قضيـة فلسـطين والمشـكلة اليهودية في أوروبـا من كل نواحيها. ولا حاجـة للقول بأن اللجنة كانـت تتكون من أعضـاء أكثريتهم ممـن وقع تحت التأثيـر الصهيونـي الأمريكي، نخـص بالذكر منهم

مندوبي الأورغواي وغواتيمالا.
تجولت اللجنة في معسكرات اليهود في أوروبا ثم جاءت إلى مصيف "صوفر" في لبنان صيف 1947 للاستماع إلى وجهة النظر العربية. ذهبت إلى صوفر وأدليت أمام اللجنة بوجهة النظر العراقية حول القضية الفلسطينية وهي تتضمن أن فلسطين لا تحل المشكلة اليهودية وأن الصهيونية هي ضارة باليهود الذين عاشوا بسلام مع إخوانهم المسلمين-والمسيحيين طوال القرون التاريخية في البلاد العربية.
في صيف 1947 رفعت لجنة التحقيق هذه تقريرها إلى الأمانة العامة للأمم المتحدة وهو يحمل رأي الأكثرية التي توصي بتقسيم فلسطين إلى دولية عربية وأخرى يهودية وتدويل منطقة القدس. أما رأي الأقلية فهو اقتراح بتأسيس نظام اتحادي على النمط السويسري للمناطق التي أكثريتها عربية والمناطق التي أكثريتها يهودية. ومن الأعضاء الذين اقترحوا هذا النظام العضو الهندي والإيراني واليوغسلافي والأسترالي.
القضية الفلسطينية عرضت على الجمعية العامة في دورتها العادية خريف 1947: وقد مثل الدول العربية في هذه الدورة عناصر ذات خبرة سياسية معروفة:
فالوفد المصري قد ضم كلا من محمد حسين هيكل باشا والدكتور محمود فوزي والوفد اللبناني ضم كلا من السادة كميل شمعون وشارل مالك وفكتور خوري والوفد السوري ضم كلا من فارس الخوري والأمير عادل أرسلان والدكتور فريد زين الدين.
والوفد السعودي ضم كلا من الأمير فيصل بن عبد العزيز والدكتور عوني الدجاني والوفد العراقي ضم كلا من السيد نوري السعيد والدكتور محمد فاضل الجمالي والوفد الفلسطيني كان يرأسه السيد جمال الحسيني.
وانضمت اليمن في أواسط الدورة إلى عضوية الأمم المتحدة وكان يمثلها الأمير سيف الإسلام عبد اللّه.
ولا بد من الإشادة هنا بذكر السيد محمد ظفر اللّه خان وزير خارجية باكستان الذي وقف من القضية الفلسطينية موقف الغيور المدافع عنها بكل قوة.
هذا وكانت الوفود العربية تعقد اجتماعات متواصلة وجهودها متناسقة. فإن العمل الرئيسي الذي قام به العرب مجتمعين متحدين هو كفاحهم في الأمم المتحدة من أجل فلسطين.
التأمت الجمعية العامة في دورتها العادية وبدأت نشاطها كما هو المعتاد بالاستماع إلى الخطب الافتتاحية للوفود. وقد جاء في خطاب الجنرال مارشال وزير خارجية الولايات المتحدة قوله "إن حكومتي تعير تقرير الأكثرية القاضي بتقسيم فلسطين وزنا كبيرا"، كلمة ألهبت مشاعر الوفد العربية. فاجتمعت وقررت تشكيل لجنة لمقابلة الجنرال مارشال. ولكن الجنرال بدل أن يستقبل اللجنة دعا رؤساء الوفود العربية إلى تناول طعام الغداء. وأكد لهم بأن الولايات المتحدة لا تزال مفتحة الذهن ولم تبت في الأمر بعد وأن إعارة الوزن لقرار التقسيم لا يعني قبول مبدأ التقسيم نهائيا.
كان المفروض أن تحال القضية الفلسطينية على اللجنة السياسية (الأولى) للجمعية العامة. ولكن ادعى أن خطورة القضية الفلسطينية وكثرة أعمال اللجنة السياسية الأولى يتطلبان تشكيل لجنة سياسية خاصة (AD HOC) لمعالجة القضية الفلسطينية. أنا لم أكن مرتاحا لهذا الترتيب. ولكني لم أستطع أن أغير مجرى الأمور.
تشكلت اللجنة السياسية الخاصة وانتخب المستر "ايفات" وزير خارجية أستراليا رئيسا لها. وكنا نظن أن المستر إيفات سيكون محايدا في رئاسته لأن مندوب أستراليا في لجنة التحقيق كان محايدا. فتبين فيما بعد بأن حياد مندوب أستراليا كان خدعة وأن أستراليا كانت مؤيدة لقرار التقسيم وأن كلا من المستر إيفات والمستر "تريغفي لي" (السكرتير العام للأمم المتحدة) كانا منحازين للصهيونية...
اللجنة السياسية الخاصة اجتمعت للنظر في القضية الفلسطينية وقررت دعوة كل من الهيئة العربية العليا والوكالة اليهودية لإرسال من يمثلها

في اللجنة للإشتراك في المناقشات والإجابة على الأسئلة التي توجه إليهم. ثم بدأت الدول الأعضاء (وفي مقدمتهم الدول العربية) ببسط آرائها حول القضية الفلسطينية فمنها من شجب تقرير الأكثرية القاضي بالتقسيم ومنها من أيده ومنها من دعا إلى التسوية والتفاهم بين العرب واليهود. ومن الجانب العراقي تكلم كل من السيد نوري السعيد والدكتور محمد فاضل الجمالي في الموضوع. فعالج الأول الغدر الواقع على العرب في تصريح بلفور وفرض بريطانيا الصهيونيين على العرب ومناقضة ذلك لرسائل مكماهون إلى الملك حسين (شريف مكة آنذاك) وحقوق العرب الطبيعية في بلادهم. وتناول الدكتور محمد فاضل الجمالي المبادئ والأسس السياسية التي ينبغي أن تعالج بموجبها قضية فلسطين. وأكد أن قرار أكثرية لجنة التحقيق القاضي بتقسيم فلسطين والمدعيات الصهيونية يناقضان كل المبادئ الديمقراطية ومبادئ وأسس ميثاق الأمم المتحدة. وفند دعوى الصهيونية بحق اليهود في الوطن القومي في فلسطين وحاجتهم إلى وطن خاص بهم. كما عرض بالولايات المتحدة التي يتناقض نفسها بنفسها حين تدعو لتطبيق بعض المبادئ في اليونان وتنكرها على فلسطين.
وتكلم الدكتور محمود فوزي مبينا أخطار التقسيم. ومازلت أتذكر كلمته مخاطبا أعضاء اللجنة "لا تفجروا الذرة !". مقارنا عملية التقسيم بتفجير الذرة وما يحمله من أخطار.
ومن أهم ما قيل دفاعا عن وجهة النظر العربية الخطاب الذي ألقاه السيد ظفر اللّه خان (رئيس الوفد الباكستاني) فقد استعرض القضية الفلسطينية وأثبت الحق الشرعي لسكانها العرب وبطلان المدعيات الصهيونية كافة. ثم هزأ بمشروع التقسيم المقترح فأثر خطابه في السامعين تأثيرا بليغا.
وتكلم السيد جمال الحسيني عن الهيأة العربية العليا مبينا أن حق عرب فلسطين في بلادهم أمر طبيعي لا يقبل النقاش وأنهم لن يتخلوا عن شبر من فلسطين قبل أن تراق آخر قطرة من دمائهم. وبين أن الوفد العربي الفلسطيني ليس مستعدا للمساهمة في أية مناقشة حول مشروع التقسيم إذ أنه مرفوض رفضا باتا من أساسه.
أعقبه الحاخام سلفر عن الوكالة اليهودية مدعيا أن علاقة اليهود التاريخية بفلسطين مؤيدة بتصريح بلفور تخولهم حقا بكل فلسطين ولكنهم مستعدون الآن أن يضحوا ويوافقوا على انسلاخ شرقي الأردن كما يوافقون الآن على الجزء المتبقي لهم من فلسطين (بموجب قرار التقسيم).
بقي الجميع يتطلعون إلى البيان الأمريكي فجاء على لسان السفير الأمريكي جونسون الذي أيد مشروع التقسيم ودعا إى تشكيل ميليشيا دولية متطوعة لفرضه. وقال إنه يفترض أن الدول الأعضاء في الأمم المتحدة المحيطة بفلسطين لن تقوم بعمل عدواني (مشيرا بذلك إلى الدول العربية). جاء هذا البيان مخيبا لأمال الدول العربية وكانت قد علمت به قبل أربع وعرشين ساعة وعهدت إلى الأستاذ فارس الخوري (رئيس الوفد السوري) بالرد. فكان رده مفحما. ثم أعقبه عدد من الخطباء ومن ضمنهم الدكتور محمد فاضل الجمالي الذي ألقى خطابا دام أكثر من ساعة رد فيه على مدعيات الدول التي أيدت التقسيم مثل الأورغواي وغواتيمالا وبولندا ثم انتقل إلى الخوض في علاقة الولايات المتحدة بالصهيونية وكيف أن الدعاية الصهيونية في أمريكا والدور الذي تلعبه الصهيونية في الانتخابات الأمريكية أديا إلى اتخاذ قرار التقسيم الضار بمصالح أمريكا وبمصالح الأمم المتحدة وبمصالح السلام العالمي. ثم تناول لجنة التحقيق التي أوصت بالتقسيم وفضح تحيز بعض أعضائها وفند مشروع التقسيم المقترح في ضوء مبادئ العدالة والديمقراطية والاقتصاد والسلام العالمي.
أخذ البعض يتساءل عن موقف الاتحاد السوفياتي وكان الأستاذ فارس الخوري ومعه الدكتور فريد زين الدين قد عرضا على الوفود العربية التفاهم مع الوفد السوفياتي فكان موقف كل من العراق

والسعودية جس النبض أولا. وخولنا الأستاذ فارس الخوري أني تولى ذلك. ولم تمض أيام ,إذا بالمستر غروميكو يتعلي المنصة ليعلن تأييد الاتحاد السوفياتي لتقسيم فلسطين على أساس حق اليهود بفلسطين وضرورة مكافأتهم لما لقوه من اضطهاد على يد هتلر ! ومن القضايا الهامة التي حدثت في اللجنة تساؤل الوفد العراقي وأيده الوفد السوري عن صلاحية الأمم المتحدة أن تقترح تقسيم بلد ما ضد رغبة أكثرية سكانه. فاقترح طلب الاستشارة القانونية من محكمة العدل الدولية في "لاهاي" في هذا الصدد. وأثار هذا التساؤل الشكوك في أذهان الكثيرين حول شرعية قرار التقسيم وبدأت آراء التأييد للاقتراح تتزايد. وقد رفض الرئيس التصويت على الاقتراح قبل موعد الغداء بل أجله إلى الليل. وقد دعى بعض المؤيدين للاقتراح إلى حفلة عشاء فاجتمعت اللجنة وجرى التصويت في غياب بعض المؤيدين. فكانت الأصوات متعادلة عشرون مع الاقتراح وعشرون ضده فكان صوت الرئيس حاسما ضد الذهاب إلى محكمة العدل الدولية فاتخذت الجمعية العامة قرارا غير شرعي وهو قرار تقسيم فلسطين.

وبعد سنوات من اتخاذ القرار اطلعت على كتاب لعالم

يهودي شهير في القانون الدولي عنوان "قانون الأمم المتحدة" والمؤلف هو الأستاذ (هانس كلسن) الأستاذ في جامعة هارفرد (آنذاك). جاء في إحدى حواشي الكتاب أن "اعتراض كل من الوفد العراقي والوفد السوري على صلاحية الأمم المتحدة بإصدار قرار بالتقسيم هو اعتراض وارد من ناحية قانونية بحتة" قلنا "وشهد شاهد من أهلها".

بعد المناقشات الطويلة أحالت اللجنة السياسية الخاصة التقرير القاضي بالتقسيم إلى لجنة فرعية لتتولى صياغته ولم يشترك العرب في هذه اللجنة واشترك فيها مشى شرتوك (شارت) من الوكالة اليهودية.

جلست مع الملاحظين لأعمال اللجنة عن بعد. فشبهت اللجنة بالقصاب الذي يقطع جسم فلسطين ويعطي الوكالة اليهودية قطعة اللحم التي تطلبها. ومما استرعى انتباهي الخلاف الذي حصل بين السفير الأمريكي جونسون وممثل الوكالة اليهودية موشي شرتوك (شاريت) حول "النقب" فكان موقف جونسون أن تكون "النقب" عربية. بينما يلح شاريت (شرتوك) أن تكون يهودية. وبينما كان النقاش حاميا بينهما وإذا بالسفير جونسون يستدعى إلى التلفون. التلفون من الرئيس ترومان. وهو يأمر جونسون أن يخصص النقب لإسرائيل. فعاد إلى اللجنة موافقا على ما يطلبه شرتوك (شاريت).

بعد أن انتهت اللجنة الفرعية من وضع تقريرها وزع على أعضاء اللجنة السياسية الخاصة فبدأ الأعضاء بتوجيه الأسئلة فتساءل كل من الوفد الباكستاني والسوري عن الأسس القانونية التي يستند عليها مشروع التقسيم. وأبدى مندوب لبنان استحالة القسيم من الوجهة العملية.

وتساءل الدكتور الجمالي (العراق) عن موقف الأمم المتحدة عن شعب سوف يدافع عن فسه فيما إذا اقتحمت بلاده. فهل ستعلن الأمم المتحدة حربا على هذا الشعب؟ ثم عاد فألقى كلمة تؤكد مخالفة مشروع التقسيم لنص وروح ميثاق الأمم المتحدة وما سينجم من فرض التقسيم بالقوة من أخطار.

ورد على كلمة الممثل الأمريكي مناشدا إياه أن يلتزم سبل السلام والحق لا سبل القوة وفرض الإرادة على الأمم المحايدة. ثم سأله إن كانت الولايات المتحدة مستعدة لإرسال قوة لمحاربة العرب؟ وإذا كان كذلك فهل ستفسح المجال للسوفيات بإرسال قوة أيضا؟ هذا وإن الرئيس "إيفات" لم يسمح لمندوب العراق أن يتكلم للمرة الثالثة فأودع كلمته إلى الزميل المصري الذي تفضل فتبناها وألقاها مشكورا باعتبارها صادرة عنه.

وفي سياق المناقشات في اللجنة السياسية ظهر أن عددا من الدول لا بأس به ينوي الاستنكاف لشكله في مشروعية التقسيم وصلاحية الأمم المتحدة للقيام بتنفيذه. فأحيل المشروع على الجمعية العامة.

مشروع التقسيم يعرض على الجمعية العامة:

عدنا من اللجنة السياسية الخاصة إلى الجمعية العامة ومعنا ثلاثة عشر صوتا تعارض قرار التقسيم. وفي الجمعية العامة بدأت المناورات والتأثيرات لكسب الأصوات. فبعض الدول اللاتينية التي لم تكن لتعلن موقفها من قبل أبدت أنها تؤيد قرار التقسيم بتعليمات من حكوماتها. كما أن دول غربي أوروبا مثل بلجيكا وهولندا ولكسمبورغ أبدت انحيازها إلى التقسيم أيضا. وصار المندوب الأمريكي يحث الأعضاء جهارا للتصويت إلى جانب التقسيم مدعيا أن لا حل لقضية فلسطين إلا التقسيم. "فإما تقسيم وإما فوضى". ومن الجهة الأخرى سرنا تحول مندوب "شيلي" من تأييد التقسيم إلى الاستنكاف. وقيام الجنرال روموللو (مندوب الفلبين) بالإعلان بقوة عن مقاومته اللقسيم. وأعقبه ممثل اليونان الذي كان مستنكفا من قبل. وأعقبه مندوب كوبا فألقى خطابا مؤثرا في دحض التقسيم رغم الضغوط المسلطة عليه. ثم قام مندوب هايتي خطيبا ضد التقسيم. أدركنا الغروب في ذلك اليوم وكانت الأصوات بجانب العرب ضد التقسيم (16) والأصوات المؤيدة للتقسيم (28) واقتنع الكثيرون بأن التقسيم فاشل لا محالة إذ أن قرار التقسيم يتطلب ثلثي الأصوات لإقراره.

وهنا أوعز المندوب الأمريكي بتأجيل الجلسة إلى ما بعد عطلة "عيد الشكر" الأمريكي أي تأجيل التصويت. ذهبنا أنا والسيد محمد ظفر اللّه خان إلى الرئيس البرازيلي (آرانيا) نرجوه إجراء التصويت. فاحتج بكثرة طالبي الكلام. تنازل كلانا عن حقه في الكلام وقلنا إن آخرين مستعدون للتنازل عن حقهم بالكلام. أخذ يتحجج. فالواقع أن الرئيس كان يتلقى توجيهاته من السكرتير العام "تريغفي لي" ذي الميول الصهيونية وهذا بدوره يتفاهم مع الوفد الأمريكي. تأجلت الجلسة العمومية حوالي السادة مساء في يوم الأربعاء الموافق 26 نوفمبر 1947 إلى ما بعد عطلة عيد الشكر وكفة الحق العربي هي الراجحة.

وفي خلال عطلة عيد الشكر قامت حملة أمريكية-صهيونية عنيفة لحمل الدول المستضعفة على تبديل موقفها من رفض التقسيم. فكانت اتصالات هاتفية مع العواصم تدخل فيها الرئيس ترومان نفسه وكان وعد ووعيد. ولم يكن في وسع الوفود العربية مقاومة الضغط السياسي والاقتصاد الأمريكي. فقد تساقطت أمام الضغط الأمريكي كل من الفلبين وليبيريا وهايتي كما أن بعض الدول انتقلت من الاستنكاف إلى التقسيم نزولا عند رغبة الولايات المتحدة. كل هذا ظهر بعد عودة الجمعية العامة إلى الاجتماع بعد عيد الشكر.

أصبح الموقف خطيرا حقا فقمت بإعداد خطاب أدعو فيه إلى تجنب التقسيم وإعطاء فرصة زمنية للتفاهم وحل القضية سلميا. وألقى مندوب باكستان خطابا مماثلا شجب فيه قرار التقسيم وأعقبه المندوب الفرنسي فألقى خطابا قال فيه: "إن خطاب الممثل العراقي قد ألقى شعاعا من نور الأمل ولو كان ضئيلا أمل حل سلمي. فاقترح تأجيل الجلسة 24 ساعة لتسمح الجمعية العامة لكل من الهتين لفتح باب للتفاهم" فتأجلت الجلسة أربعا وعشرين ساعة.

اجتمعت الوفود العربية وارتأت أن تتقدم بمشروع اتحادي لفلسطين (لا يكون ملزما لممثل الهيئة العربية العليا) وعهدت إلى كل من الأستاذين فارس الخوري وكميل شمعون بصياغته. تقدم السيد كميل شمعون بالمشروع إلى الجمعية العامة ولكن الأمريكان والروس وكندا عارضوا حتى مناقشة المشروع. وهنا قام الأستاذ فارس الخوري (رئيس الوفد السوري) وألقى خطابا انتقد فيه الأساليب التعسفية التي اتبعت في فرض مشروع التقسيم على الجمعية العامة. وقد اتصل الدكتور فاضل الجمالي بالسيد (عدل) مندوب إيران ليقترح على الجمعية العامة تأجيل الجلسة وإعطاء الفرصة للأعضاء ليدرسوا قرار التقسيم. فعل ذلك. ولكن الرئيس (آرانيا) رفض النظر في الاقتراح.

تقدم الرئيس آرانيا يطلب أخذ الأصوات فكانت النتيجة 13 صوت ضد التقسيم و33 صوت مع التقسيم و(10) أصوت مستنكفة. وتخلف مندوب سيام (تايلندا) عن الحضور.

وبعد انتهاء التصويت تكلم كل من الأمير فيصل بن عبد العزيز والسيد محمد ظفر اللّه خان والدكتور محمد فاضل الجمالي والأمير عادل أرسلان والأمير سيف الإسلام عبد اللّه شاجبين القرار ومبدين أن الأمم المتحدة خيبت الآمال وأن الدول العربية في حل من هذا القرار المجحف بحقوق العرب والذي يناقض ميثاق الأمم المتحدة نصا وروحا. وهنا غادرت الوفود العربية قاعة الجمعية العامة محتجة على القرار !

والبعض منا يتذكر كيف أجهت مندوب هايتي بالبكاء حين أجبر على تغيير موقفه من معارض للتقسيم إلى مؤيد. كما نتذكر كيف أن الجنرال رومولو رئيس الوفد الفلبيني اضطر إلى الهرب من نيويورك تحت تهديد الصهيونية إياه. وأن الدكتور بلت (رئيس الوفد الكوبي) استقال من منصبه حين اضطرت حكومته إلى تغيير موقفها، إذ اعتبر التغيير أمرا منافيا للضمير الأخلاقي.

شرعية الوجود الإسرائيلي:

وفي الختام أقول إن الدول الصهيونية في فلسطين

تستند في وجودها القانوني على وثيقتين معتلتين: أحداهما تصريح بلفور والثانية قرار التقسيم الصادر عن الجمعية العامة للأمم المتحدة في 29 نوفمبر 1947 إن كلتا الوثيقتين قامتا على الغدر والخداع واستعمال القوة الغاشمة والأساليب الاستعمارية البالية:

تصريح بلفور:

جاء مناقضا للتعهد البريطاني للشريف حسين (شريف مكة المكرمة) التعهد الوارد في رسائل مكماهون وهو التعهد الذي قطعته بريطانيا على نفسها باستقلال البلاد العربية بعد تحررها من الدولة العثمانية.
فبقيام الثورة العربية الكبرى في الحرب العالمية الأولى أصبح العرب حلفاء لبريطانيا وفرنسا. فهل يصح أن تهدى بلاد الحليف إلى جهة ما من دون علمه أو موافقته؟ وهل يصبح هذا الإهداء مشروعا؟ ألم يكن هذا الإهداء من قبيل "وهب الأمير ما لا يملك" ! لا يستند إلى شرعية قانونية. ادعت الحكومة البريطانية بأن فلسطين كانت مستثناة من الوعود الواردة في رسائل مكماهون. إذا استثنيت الأراضي الواقعة غرب "حمص" في سورية. وهل فلسطين تقع غربي حمص؟ لقد كانت مغالطة صريحة. عادت الحكومة البريطانية فأصدرت كتابا (أبيض) قبل الحرب العالمية الثانية تعترف فيه بأن فلسطين لم تكن هي المقصودة في الأراضي المستثناة غربي حمس. وبذلك زالت كل صفة شرعية لتصريح بلفور وأصبح الوطن القومي اليهودي في فلسطين احتلالا استعماريا لا أكثر ولا أقل.

أما الوثيقة الثانية وهي قرار التقسيم الصادر عن الجمعية العامة للأمم المتحدة والذي بموجبه قسمت فلسطين إلى دولة عربية وأخرى يهودية وقدس مدولة فقد رأينا كيف أن الجمعية العامة لم تكن تملك الصلاحية لإصدار قرار بتقسيم بلد ضد إرادة أكثرية سكانه. وكيف أن صدور القرار وقع نتيجة لضغوط وتأثيرات في تصويت الأعضاء وكيف أن هذا القرار يدوس ويسحق مبادئ ميثاق الأمم المتحدة ولائحة إعلان حقوق الإنسان. إذن فقرار التقسيم هو بدوره لا يكتسب صفة شرعية. هذا ولو جارينا الذين يدعون بشرعية تصريح بلفور وشرعية قرار التقسيم فنحن نتساءل هل إن الصهيونية المعتدية في إسرائيل احترمت هاتين الوثقتين؟ ألم يتضمن تصريح بلفور نصا "بألا تمس الحقوق الدينية والمدنية لسكان فلسطين غير اليهود"؟ هل احترمت إسرائيل هذا النص في احتلالها لفلسطين وفي اعتدائها على المقدسات الإسلامية والمسيحية فيها؟ هل احترمت حقوق العرب الدينية والمدنية في فلسطين؟

وقرار التقسيم الذي جاءت بموجبه إسرائيل إلى الوجود هل تمسكت به إسرائيل؟ هل اعترفت بحق العرب بتأسيس دولتهم في فلسطين وهل اعترفت بتدويل القدس؟

من كل هذا نتوصل إلى أن إسرائيل ولدت وهي دولة غير شرعية. ثم أنها لا تحترم الشرعية. فهي تمارس التوسع والاستيلاء والغدر والعدوان على جيرانها. إنها لا تحترم العهود والمواثيق.

ونحن نؤكد بأن السلام في الشرق الأوسط لن يتحقق ما لم تستند شعوب المنطقة جميعها على شريعة القانون والأخلاق واحترام حقوق الإنسان. ونحن نقول لإخواننا الفلسطينيين خاصة ولأمتنا العربية عامة عودوا إلى القرآن الكريم واتلوا قوله تعالى:
"ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين" (آل عمران 135).
وقوله تعالى:
"والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن اللّه لمع المحسنين"(آخر سورة العنكبوت).

المعهد العربي للديمقراطية خلال الثلاثي الاخير من 2021

فض النزاعات البلدية والقيادة المدنية وإحياء اللحظة الأندلسية

سناء (مدللة) بنضو *المديرة التنفيذية للمعهد العربي للديمقراطية

واصل المعهد العربي للديمقراطية خلال الربع الأخير من السنة الحالية سلسلة أنشطته المدنية لصالح عشرات نشطاء المجتمع المدني التونسي والعربي، وفي مختلف ربوع الجمهورية جنوبا ووسطا وشمالا، وذلك رغم الظروف الاستثنائية التي تمر بها البلاد، خصوصا منذ الاعلان عن إجراءات 25 جويلية التي وضعت تونس في حالة خاصة، أثرت بعمق على الحياة العامة وزرعت المثير من مشاعر الخوف والترقب والتردد، وهو ما استدعى من ادارة المعهد بذل جهود اضافية في إقناع الداعمين او المشاركين بضرورة مواصلة المجتمع المدني لوظائفه الطبيعية، والمضي قدما في استكمال مسار الانتقال الديمقراطي.
وقد تنزلت أنشطة المعهد وفعالياته وفقا لمحاور عمله وأولوياته المعتادة، كالآتي:

أولاً: محور الحكم المحلي واللامركزية الموسعة:
فقد نظم المعهد ضمن هذا المحور، وفي سياق مشروعه في الحكم المحلي الموسوم ب"فض النزاعات البلدية"، أربع دورات تدريبية من يوم واحد لصالح المستشارين البلديين والفاعلين المحليين في اربع بلديات تونسية، هي مدينة برقو في 22 اكتوبر 2021، وجزيرة جربة يوم 5 نوفمبر 2021، ومدينة المهدية يوم 19 نوفمبر 2021، واخيرا مدينة اريانة يوم 4 ديسمبر 2021.
وقد تضمن محتوى الدورات على حصص في التقنيات السياسية والقانونية لفض النزاعات فضلا عن اخرى خصصت لتطوير مهارات الاتصال والتواصل، للمشاركين الذين بلغ عددهم 111 شابة وشابة ينحدرون من مختلف أقاليم وجهات البلاد التونسية، تسعون بالمائة من بينهم أعمارهم بين 20 و40 عاما.
وقد ساهمت الخبيرة الدولية في مجالات الحكم المحلي والتنمية البشرية في تأطير هذه الدورات، بمساعدة الطاقم الاداري والتربوي للمعهد، وذلك بالتعاون مع عدد من الجمعيات الناشطة على المستوى البلدي والمحلي.

ثانيا: محور الدولة المدنية:
حيث نظم المعهد في إطار فعاليات الموسم الرابع لأكاديمية الدولة المدنية، المشروع الرائد محل الشراكة مع مؤسسة هانس سايدل الألمانية، دورتين تدريبيتين في جزيرة جربة وولاية المهدية حول "التربية على القيادة المدنية" شارك فيها ما يزيد عن الخمسين شاباً وشابة مثلوا إقليمي الجنوب والوسط، وساهم في التدريب ثلاثة من خيرة خبراء المعهد في المجال، الاستاذ مهدي عبد الجواد والأستاذ بثينة الورغي والأستاذ فخر الدين المانسي.
وقد تضمنت الدورتان على امتداد ثلاثة ايام لكل منهما، موادا حول المهارات القيادية المدنية وتقنيات الاتصال والتواصل وثقافة المبادرة الحرة ولمحة عن مشاريع الاقتصاد الاجتماعي والتضامني.

ثالثا: محور التنمية الحضارية:

فبالشراكة مع الاتحاد الدولي للمؤرخين وعدد من منظمات الأكاديمية والمدنية، ساهم المعهد العربي للديمقراطية في تنظيم مؤتمر علمي بمدينة الحمامات حول "الأندلس مسارات التاريخ والحضارة"، وذلك خلال الفترة من 26 الى 28 نوفمبر 2021، وبمشاركة ما يزيد عن عشرين باحثين من عديد الدول العربية كالعراق وليبيا والمغرب وتونس، وبحضور شخصيات وطنية بارزة في مقدمتهم الدكتور خالد شوكات الوزير السابق ورئيس المعهد العربي للديمقراطية والدكتور عبد اللطيف عبيد الامين العام المساعد السابق للجامعة العربية ووزير التربية الأسبق، والمؤرخ الكبير الاستاذ الدكتور عبد الجليل الامين الذي جرى تكريمه في الجلسة الافتتاحية للمؤتمر.

وخلال كلمته الافتتاحية توقف الدكتور خالد شوكات عند جملة من النقاط الهامة حول موضوع المؤتمر لعل أهمها:

* أن علينا ان نهتم بالتاريخ لاجل المستقبل
* أن اللحظة الأندلسية هي احدى اهم اللحظات المضيئة في تاريخ الحضارة العربية الاسلامية وعلينا الاستفادة منها قدر الإمكان
* أن الحضارة الأندلسية اكبر من الأندلس (حيث فيضانها لفائدة الانسانية شمالا وجنوبا)
* أن عودة الموريسكيين ممكنة واعتذار الاسبان ضروري
* أن الهجرة الأندلسية إلى تونس أثرت البلاد وأنقذت الاقتصاد
* أن سؤال لماذا تخلف المسلمون وتقدم غيرهم ما يزال مطروحا ومحاولة الإجابة عنه متواصلة منذ سقوط الأندلس الى اليوم.
* أن الثلاثي الاندلسي: ابن رشد/ ابن عربي/ ابن خلدون ما يزال الأكثر عمقا وتاثيرا في الفكر العربي الاسلامي
* أن استئناف اللحظة الأندلسية تقتضي التمسك بافكار الاصلاح والتجديد .

نعي الدكتور زهير شمة:

وأخيرا وببالغ الحزن و الأسى ينعى المعهد العربي للديمقراطية أحد الأصدقاء الأفاضل الدكتور زهير شمة مدير المدرسة العراقية بتونس ، الذي انتقل الى جوار ربه صبيحة يوم 04 ديسمبر 2021 بالعراق بعد عودته من تونس . وقد كان المرحوم أحد المشرفين على المؤتمر البحثي الأخير"الأندلس مسارات التاريخ و الحضارة " و كان نعم الناشط المتفاني في خدمة العلم و المعرفة و الإنسانية

و بهذا المصاب الجلل تتقدم إدارة المعهد و أمانته العامة بالتعازي الخالصة إلى عائلته و طلابه و زملائه بتونس و العراق، سائلين اللّه أن يتغمده برحمته الواسعة.

الرحلة المستعادة:
قبل 35 عاما من وجدة إلى طنجة

د. خالد شوكات

فجأة تكتشف أن ابنك أصبح في طولك وإنه صار رجلا يمكن ان تتخذه رفيقاً، في السفر وفي الحياة، وما الحياة سوى رحلة قصيرة مهما طالت، وما المرء إلا عابر سبيلٍ استظل بشجرة كما يقول الحديث النبوي الشريفً.

وهكذا برقت الفكرة في ذهني. كنت بمعية صهري والد زوجتي واسمه "سي جلال"، وابني محمد جلال، في مقهى بمارينا الناظور، الميناء الترفيهي الجديد لهذه المدينة المتربصة بمليلية الجيب الإسباني المحتل، نجلس قبالة المحتل تماما لا يفصلنا عنه إلا خليج من ماء البحر، وهو الذي أغلق أبواب سوره الحديدي عليه منذ بدأت الكورونا تطيح بأرواح البشر قبل ما يناهز العامين، وكأننا نحيى أجواء حرب عالمية أولى أعقبتها جائحة حمى إسبانية .

كنا ثلاثتنا نحتسي القهوة ونستحضر بعض الذكريات في ساعة "مغربية" رائقة، بدأت الشمس فيها تسقط على جبال فرخانة المجاورة، تلك التي رابط فيها جيش الشيخ محمد بن عبد الكريم الخطابي قبل مائة عام بعد تحرير منطقة الريف بكاملها، إلا مليلية التي لا يعلم المؤرخون حتى الساعة لماذا تركها تتنفس حية تسعى، وفجأة تذكرت أن جلال - هكذا نناديه اختصاراً وتيمنا بمولانا جلال الدين قدس سره- قد بلغ الخامسة عشرة، وانني عندما كنت في سنه قمت بمغامرتي الاولى في السفر الى هذا البلد الذي أحببته، وانا بمدين له بالكثير، فعزمت على ان استعيد معه الرحلة بحذافيرها، واذهب معه الى نقطة البداية "وجدة".

قبل 35 عاما..

كنت مثل جلال تماما، أتممت لتوي المرحلة الإعدادية منتصف ثمانينيات القرن العشرين وأتهيأ لولوج المرحلة الثانوية، وبعد أن كان أفقي لا يتجاوز حدود الوطن، أضحى الأفق مغاربيا، ففي قريتي الوادعة "المزونة"، اكتشف الناس الطريق الى المغرب عبر الجزائر الشقيقة. كانت مجموعة من النسوة يذهبن إلى وجدة والناظور في رحلة تدوم أسابيع بالسيارة، ليهدم بعدها بسلع متنوعة وملابس وأشياء أخرى غير معلومة، يبعنها من منازلهن ويربحن ما يشجعهن على السفر مرة اخرى. قلت في نفسي اذا كانت النسوة لا تخشين الطريق فهل يليق بي أنا أن

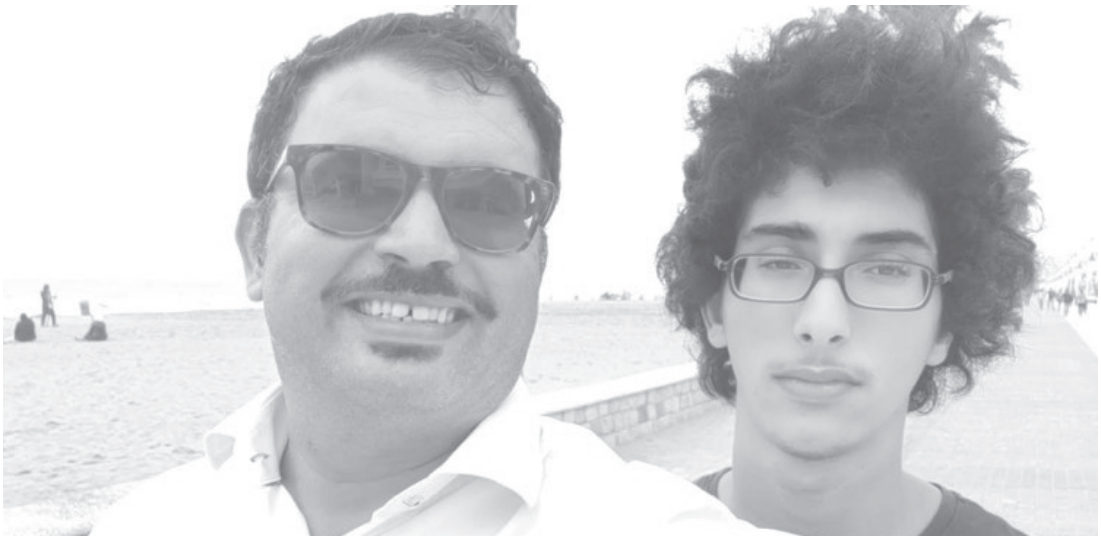

أخشاه، لا واللّه، وعزمت ثم توكلت. فاتحت والدي في المشروع وأصررت، ووافقني رغم اعتراض الاهل والاصدقاء، قالوا له كيف ترسل طفلا في رحلة مجهولة كهذه، ولكنه أبى الإنصات إليهم، وأخبرهم بثقته في ولده رغم حداثة سنه..زودني بالمال على قلته، وصحبني حتى آخر محطة قطار "غار الدماء" أو "غارديماو" (كما تنطق بلهجة أهلها).. تركني هناك وأنا اليوم على يقين بأنه ما كان ليتركني وحيداً لو لا رغبته في أن يصنع مني رجلا يعتمد عليه، والسفر مدرسة تصنع الرجال.

وجدة..الحدود المغلقة

بعد خمسة وثلاثين سنة من تلك الرحلة، تغيرت الدنيا بل انقلبت أحوالها تماماً، وعادت ترتيبات السفر أيسر بكثير، وعندما حسمت الأمر باستعادة السفرة في مسارها نفسه، وعبر المدن ذاتها، قمت خلال نصف ساعة فقط، عبر الانترنت، بحجز الفنادق التي سنقيم فيها، في المدن الخمسة التي سنمر بها، وكان ذلك ضرباً من الأحلام حين تركني والدي بمصيري في محطة غار الدماء قبل ثلاثة عقود ونيف..حددت تاريخ الانطلاق، وكانت سيارة الأجرة يومين بعد القرار، تقطع بنا في سرعة جنونية، المسافة التي تفصل الناظور عن وجدة، الطريق الساحلية التي تمر بمنتجع السعيدية، قبل أن تتجه يميناً إلى سهل أنجاد التي تحتل مدينة الألف سنة موقع القلب فيها.

كان الفندق الذي اخترته في وجدة يقع في الساحة القديمة لمحطة القطار، وسط المدينة التي أعرفها جيدًا، فمن جامعتها نلت شهادة الإجازة في الحقوق، بعد ان قضيت في مقاعد الكلية اربع سنوات في بداية التسعينيات، كانت من اجمل سنوات العمر. هاتفت بمجرد وصولي الصديق خليل البوزيدي الذي لم تنقطع صلتي به وبعائلته طيلة الربع قرن الاخيرة. وخليل ناشط مدني ورئيس جمعية الشباب الاورو-متوسطي في المغرب، وهو الن الحاج محمد البوزيدي رحمه اللّه احد أوائل خريجي المدرسة الوطنية للإدارة بباريس واحد زملاء الرئيس الفرنسي جاك شيراك، وهو شريف النسب تعود جذور عائلته الى الدوحة النبوية المشرفة عبر الجذع الادريسي، ولنا قصة مع الأدارسة ستتواصل في فصول

كان الفندق الذي اخترته في وجدة يقع في الساحة القديمة لمحطة القطار، وسط المدينة التي أعرفها جيدًا، فمن جامعتها نلت شهادة الإجازة في الحقوق

الرحلة التالية.

لـم يبطـئ خليـل بالمجـيء إلينا، طيـب وخدوم كعادتـه دائمـاً. رجوته أن يأخذنا الـى بوابة "زوج ابغـال الحدودية" مع الجزائر. كنت اريد ان ننطلق من أقصى نقطة في الشـرق المغربي، وان يقف جلال بنفسـه علـى الجريمـة المرتكبـة في حق أبنـاء جايه والأجيال التي سـتليها، فإغلاق الحدود الجزائريـة المغربيـة لم يكن إغلاقـا للحدود بين بلديـن وشـعبين شـقيقين بـل إغلاقـا للحركة الطبيعية امام جميع بلدان المغرب الكبير، وخيانة لأمانة الابـاء والاجـداد، وضرب للمسـتقبل الذي يقتضي الوحدة لا التقسيم.

عندمـا وصلنا البوابة المغلقة التي لا تبعد سـوى 14 كيلومتـر عـن وسـط المدينـة، جلسـنا فـي المقهى الذي عند البوابـة، وفاجأنا خليل بإخبارنا ان هذا المقهى كان علـى ملك والده الراحل وهو الذي أنشـأه أواسـط السـبعينيات قبل ان يبيعه.

علـى جنبـات الطريق الى وسـط المدينـة توجد عشرات المرافق السياحية والترفيهية التي تنتظر قـدوم الاشـقاء الحزائريـيـن، من المـدن القريبة خاصة، مغنية وتلمسان وسيدي للعباس ووهران، فالغـرب الجزائري والشـرق المغربـي بلاد واحدة قسـمتها الحدود المصطنعة الى شطرين، وهناك من يسـكن على مسـافة لا تبعد عن وجدة سوى كيلومتـرات لكنـه يضطر الى قطع مسـافة ألفي كيلومتـر حتى يـزور عمته او خالته التي تسـكن فيها..انها صورة حزينة لواقع مؤلم يعيشه الناس منـذ قـرار النظام الجزائـري إغلاق الحدود سـنة 1994.

فاس..آنوار الأدارسة

لم نطل المقام في وجدة. كانت ليلة واحدة لنستقل في صباح اليوم الموالي القطار إلى فاس، تماما كما فعلت قبل خمس وثلاثين عاما. فاس أول مدينة إسلامية بنيت في هذه البلاد. بناها المولى ادريس الابن بمعية أخواله الأمازيغ، الذين تحيط قبائلهم بها من الشمال والجنوب. "الريافة" شمالا و"الشلوح جنوبا". لقد تركه أمانة في بطن أمه كنزة البربرية، والده المولى ادريس الأكبر (دفين مدينة مولاي ادريس زرهون)، ابن عبد اللّه الكامل ابن الحسن المثنى ابن الحسن السبط ابن علي وفاطمة حفيد رسول اللّه عليهم السلام جميعا، فلما ولد رعاه جده وأخواله حتى صار رجلا شاباً فأمروه عليهم وحاربوا معه حتى صار للأدارسة دولة مهابة، استمرت ما يناهز القرنين، وقد انتشر نسل ادريس الثاني في أنحاء البلاد المغاربية، حتى صار اغلب الزعماء والقادة والأئمة أدارسة النسب، من بينهم الامير عبد القادر الجزائري والملك الليبي ادريس السنوسي واخرون كثر، فيما استمرت فاس مشعة بأنوار الأدارسة إلى يوم الناس هذا.

في الطريق إلى أخي وصديقي الشيخ الدكتور عبد العزيز الكبيطي الادريسي، لزيارته والسلام عليه ونيل بركة الأدارسة منه، ولي معه وهو رجل التصوف والعرفان ذكريات طيبة في أرض اللّه الواسعة، أخبرني مساعده الدكتور محمد، وهو من أهل اللّه أيضا، عن حظ المغاربة من نسل النبي (ص)، مشيدا بفضل الأدارسة على بلاد المغرب، فلولاهم كما قال لما ترسخت عرى الاسلام ووحدة الشعب وساد الأمن والاستقرار هذه الربوع، مشيرا الى الشرف الذي نال اجداده وأبناءه وناله بخدمتهم.

كانت زيارة مركز الدراسات الصوفية والجمالية، ولقاء احد انوار الأدارسة، غذاء للروح والقلب ومبعثا للطمأنينة والسكينة، عززناها أنا وجلال بحضور ورد العصر في الزاوية التيجانية بفاس القديمة، ففي زاوية سيدي احمد التيجاني القطب الصوفي، الذي يأتي كل عام مئات الآلاف من المسلمين، خصوصا الاشقاء الافارقة جنوب الصحراء، لزيارته والسلام عليه، يقرأ المؤمنون الفقراء والسالكون والعارفون على السواء، ورداً يومياً يذكرون فيه اللّه بعد صلاة العصر من كل يوم. وسيدي احمد التيجاني يعود في نسبه الى محمد النفس الزكية ابن عبد اللّه الكامل المحض، وهو أخ المولى ادريس الاول وعم المولى ادريس الثاني.. نور الأدارسة قبس من النور الاكبر رسول اللّه (ص)، وقد غادرنا فاس ونحن نعبق بريحهم ونستدل على الطريق بضيائهم.

> **كانت زيارة مركز الدراسات الصوفية والجمالية، ولقاء احد انوار الأدارسة، غذاء للروح والقلب ومبعثا للطمأنينة والسكينة، عززناها أنا وجلال بحضور ورد العصر في الزاوية التيجانية بفاس القديمة**

مكناس..العاصمة الإسماعيلية

في مكناس وجهتنا الموالية بعد فاس، اخترت أن تكون إقامتنا في دار ضيافة تسمى "رياض الذهب"، تقع في باب عيسى في قلب المدينة العتيقة، التي لا تختلف في تصميمها المعماري وأزقتها الضيقة ودروبها الملتوية عن اي مدينة عربية إسلامية اخرى في المشرق او الأندلس، وقد كان الاختيار صائباً الى حد كبير، مريحا للعين والنفس والذائقة، حتى انني لما طلبت من جلال لاحقا ترتيب اماكن الاقامة في جميع المدن التي زرناها، منح إقامة رياض الذهب الرتبة الاولى بلا أدنى تردد.

الرياض بيت قديم يعود بناؤه الى سنة 1791، أي انه يحتفل هذا العام تحديدا بمرور 230 عاماً على إنشائه، وقد جرى اصلاحه دون ان يفقد قيمته

التاريخيــة، بالحفــاظ علــى ذات الطــراز المغربي الاندلســي من الداخل، أما من الخارج فبابه عادي تجســيدا لفلسفة الاسلام في عمران المدن، حيث يســتوي الفقراء والاغنياء في الظاهر، أما الباطن فاللّه به عليم.

غرفتنــا كان اسـمها "صحــراء"، لكنهــا لــم تكــن صحــراء أبداً بــل غرفــة رائقة تتوفــر على جميع ســبل الراحة، تماما كغرف فنــادق الدرجة الاولى، مــع امتيازها عليهم بأصالة الــذوق وفرادة الاثاث. أعلاها في السقف الذي يطل على المدينة بجزأيها القديــم والجديــد، ثمــة جلســة بديعــة خصوصا ساعة المغربية كما يقول اخواننا في الشرق، ومع ارتفاع الاذان من صوامع المدينة تجد نفســك في حلقة سماع تحلق بك بعيدا في السماء..اللّه أكبر.

رغم ان اهل الرياض قالوا ان عدد زبائنهم نقص زمــن الكورونــا، لكننــا لاحظنــا أن دار الضيافــة كانــت ملآنة عــن آخرها، وقــد تعرفنا على بعض الــزوار الذين قالوا انهم جاءوا من كندا عن طريق البرتغال، وانهم أعجبوا بالرياض خاصة وبالمدينة عامة أيما إعجاب.

مكناس ذات هواء عليل يحلو المشي في شوارعها والتنزه في حدائقها الكثيــرة الغناء، والتوقف بين الفينة والأخرى في مقاهيها ومطاعمها، لارتشاف كأس شــاي منعنــع أو كوبا عصير برتقال، ســواء فــي الجزء الجديــدة كحــي الحمرية مثــلا، أو في الجزء القديم غير بعيد عن ســاحة الهديم، وذلك بعد ان تقطع الــوادي الأخضر الفاصل بينهما. أما أهل مكناس فيشــبهون أرضها الخصبة المعطاء، التي تغلب عليها شجرة الزيتون، طيبون يرشدون الغريــب بكل ود الــى مقصده، وقد افلــح المولى اسماعيل احد اشهر ملوك الاسرة العلوية الحالية، عندما جعلها عاصمة وحلم بان يجعلها من اعظم مــدن بــلاده والعالم بأســره.. لقد أحببنــا مكناس حقاً.

طنجة..ملتقى البحرين

محطتنــا الرابعة كانت طنجــة. علاقتي بها خاصة جــدا، فمنــذ زيارتي الاولــى لها قبــل ثلاثة عقود ونصــف، كانت قبلتي كل صيف، ولم اخلف وعدي معهــا حتى غــادرت المغرب لاســتكمال دراســتي العليا في هولندا سنة 1994. كانت القصبة (البلدة القديمة) هي وجهتي الاساسية غالبا. صرت اعرف أزقتها ودروبها وبنســيوناتها ومطاعمها الصغيرة ومقاهيهــا وســاحاتها، فعندمــا يســقط قــرص الشــمس في بحــر الظلمــات (هكذا كان يســمى المحيط الأطلســي قبل اكتشــاف امريكا)، تمسي القصبــة أكثــر إلفــة وحميمية، ويصبــح الجلوس في مقاهي ســاحاتها أشبه باســتديوهات الدراما

المصرية، وعلى الرغم من وقوع طنجة في أقصى نقطة من الغرب الاسلامي، الا انها لا تخلو من روائح الشرق التي تعبق خاصة في الجزء العتيق منها، وتبدو الهوية الاسلامية المحافظة واضحة على ملامح اهلها وسلوكهم، فالمساجد كثيرة جدا، ومحيط المدينة يعج بالكتاتيب القرآنية وبحفظة الكتاب.

عدت مع محمد جلال الى القصبة هذه المرة أيضا، واخترت ان أحقق حلماً كان يتراءى لي عندما زرت المدينة أول مرة أنه بعيد المنال، ولكن ها هو يتحقق. كان فندق الكونتينونتال العريق الذي يحتل أعلى الهضبة ويقع قبالة ميناء طنجة المدينة، ويقال ان البرتغاليين هم من اسسه قبل

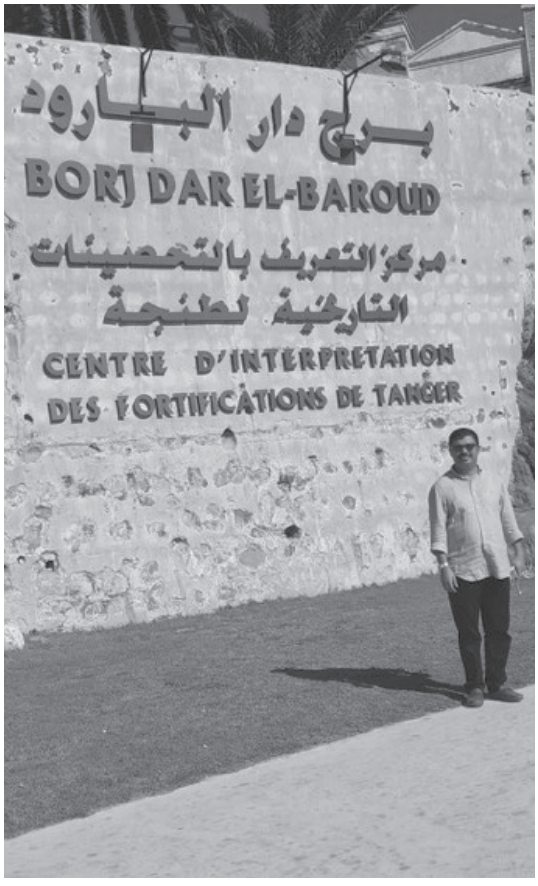

ما يزيد عن المائة والخمسين عاماً، قبلة النخب الطنجية الأوربية والأمريكية أواخر القرن التاسع عشر وجزءا كبيرا من القرن العشرين، قبل ان تتراجع مكانته مع ظهور فنادق الأربعة والخمسة نجوم بعد الاستقلال، ومن اشهر الشخصيات التي أقامت في هذا الفندق وينستون تشرشل، لكنه بقي الى اليوم مبناً ذا قيمة خاصة، وما كان لطالب متواضع الحال أواسط الثمانينيات ان يفكر مجرد التفكير في الاقامة به. كانت بنسيونات القصبة المجاورة التي تؤجر غرفها بأسعار لا تتجاوز خمسة وعشرين درهما حينها، أكثر من كافية، فسرير للنوم وحمام للاغتسال وباب بقفل هي غاية ما يرجى، وبقية المرافق من اكل وشرب تتكفل بتوفيرها المقاهي والمطاعم المجاورة.

وعلى الرغم من تراجع تصنيفه الى ثلاثة نجوم، ما يزال فندق كونتينونتال جراء موقعه المميز وشرفاته الساحرة التي تمنح المقيم نظرة بانورامية أخاذة على كورنيش مدينة طنجة الممتد على كيلومترات، يصعب ان يمنحها اي فندق اخر.

خصصنا لطنجة يومين كانا كافيين، للقيام بجولة في داخلها وفي محيطها القريب. لقد زرنا أسواق المدينة القديمة، وذهبنا الى رأس سبارطيل حيث يلتقي البحران المتوسط والمحيط الأطلسي، فترى بام العين مياهاً زرقاء ومياها اخرى اكثر زرقة، ومغارة هرقل التي نسجت حولها الأساطير، ومررنا بقصر مولاي عبد الحفيظ وحي مرشان التاريخي الذي كان سكن الأرستقراطية، ومشينا على الكورنيش لساعات، وتذوقنا الطعام اللذيذ في اماكن شعبية واخرى عصرية.

ما تزال طنجة تحتفظ بطابعها العالمي الذي اكتسبته خلال سنوات الادارة الدولية لها بين 1926 و1956، وما تزال فخورة بإقامة المشاهير من الفنانين والادباء والشعراء الغربيين فيها، وتفضيلهم إياها على مدنهم الأصلية، تماما كما هي فخورة بادبائها وفنانيها وشعرائها

الوطنيين وفي مقدمتهم صاحب "الخبز الحافي" الراحل محمد شكري.. توسعت طنجة كثيرا خلال العشرين عاما الماضية، وعادت تمتلك بنية تحتية متطورة كأي مدينة اوربية، وآخرها محطة القطار بديعة التصميم وقطار البراق فائق السرعة الذي يصلها بالدار البيضاء العاصمة الاقتصادية للبلاد في حوالي الساعتين..طنجة مدينة ابن بطوطة ما تزال مدينة تحب السهر في الفضاءات الخارجية حتى ساعات الفجر، ولهذا وجدناها غير منضبطة لقرارات حظر التجوال، وقد بلغنا ان السلطات متفهمة لخصوصية هذه المدينة..لكننا كضيوف عليها التزمنا بهذه القرارات.. حتى غادرناها إلى محطتنا الموالية، تطوان.

تطوان..عينان على الشرق والغرب

لا تبعد مدينة تطوان عن طنجة سوى حوال ستين كيلومترا، ويشكلان معا الى جانب مدينة الحسيمة جهة واحدة لها مجلس ورئيس، منذ اختار المغرب قبل سنوات السير في خيار لامركزية موسعة أو جهوية موسعة كما هو المصطلح القانوني المغربي. والسفر من طنجة إلى تطوان متاح بالباص وبسيارات الأجرة، واخبرني بعضهم بأن قطارا كان يربط المدينتين زمن الاستعمار، ولعل المكتب الوطني للسكك الحديدية له مخطط لاحياء هذا الخط خلال السنوات المقبلة، خصوصا وان الشبكة الحديدية المغربية تعتبر الأكثر تقدماً اليوم على الصعيد المغاربي والافريقي.
وتطوان تعني باللغة الامازيغية "العينان"، ولدينا في تونس مدينة بنفس المعنى الامازيغي هذا، ألا وهي تطاوين.
وكانت تطوان خلال الفترة الاستعمارية عاصمة المنطقة الخليفية الواقعة شمال البلاد وكانت خاضعة للاحتلال الإسباني. وقد شهدت المدينة خلال تلك الفترة نهضة عمرانية وثقافية، وكانت اول من احتضن مطبعة باللغة العربية، وشكلت لعقود عاصمة لصحافة الحركة الوطنية المغربية، تصدر منها عدة مجلات وصحف بلغة الضاد، ويزورها رموز الثقافة العربية والمغربية.
اخترنا فندقا في قلب المدينة، في الحي الكولونيالي الذي بناه المستعمر الإسباني، فندق دافئ بموظفيه اللطفاء الذين يعرضون من الوهلة الاولى مساعدة زبائنهم دون طلب، غير بعيد عن سينما لافينيدا المعروف، الموروث عن نخبة إسبانية لم تكن اقل ولعاً بالفن السابع من نظيراتها الأوربية، وقد ورث اهل تطوان عنهم حب الفن السابع، فأقاموا مهرجانا سينمائيا ذائع الصيت تخصصه السينما المتوسطية، واتخذ من لافينيدا قاعة عرضه الرئيسية.
زائر تطوان لن تفوته ملاحظة أن للمدينة عينان فعلا، عين على اوربا التي لا تبعد عنها سوى كيلومترات قليلة، سواء من خلال امتدادها في الارض المغربية عبر "سبتة " الجيب المحتل منذ خمسة قرون تقريبا، أو عبر مضيق جبل طارق، الذي منه عبرت سفن طارق بن زياد نحو اسبانيا، وأقيمت بعدها حضارة عظيمة، قال لي احد موظفي الفندق:" تعرف يا استاذ، نحن اهل تطوان مازلنا نحلم بالعودة الى الأندلس بلادنا الأصلية، وما زلنا رغم مرور قرون على طردنا نشعر باننا سنسترجعها يوما ما".
عين تطوان الثانية على المشرق، فهي مدينة شديدة الارتباط بالهوية العربية الاسلامية، المقاومة والعروبة وفلسطين وجنين اسماء شوارعها وأشهر محلاتها، واهلها لا يترددون في التعبير عن مشاعرهم الودية ازاء ضيوفهم القادمين اليهم من الشرق. هذه المرة وعند زيارتنا لمصيفها، بلدة مرتيل الجميلة، وجلوسنا في احدى مقاهيها على شاطئ البحر المتوسط الرائع، لم يكتفي صاحب المقهى.
بكلمات المودة التي أغدقها علينا، بل كان بين كلمة واخرى يغدق علينا بما لذ وطاب، ويردف قائلا "هذه هدية من المحل".
هكذا غادرنا تطوان ونحن نشعر بأننا نفارق أهلا وأحباباً يعز علينا أن نفارقهم.

الزعيم أحمد المستيري

الرجل والقضية.. (1925 – 2021)

رشيد الذوادي
ناقد تونسي

> هم رجال صناديد قاوموا الاستغلال ومؤامرات التغريب، ولفتوا الأنظار في الثبات والإقدام، وعززوا كل الجهود المقترنة بالكفاح الشعبي وبالنهضات الاجتماعية، كما عاشوا عذابات السنين، وعرفوا الشيء الكثير عن مظالم المستبدين، وعما روجوه من افتراءات في بلاد العرب والإسلام.

في البدء:

في البدء وفي ظلال الأضواء الكاشفة على تاريخ أمتنا العربية، وفي وقت تمتد فيه أيدينا إلى بعض الملفات، نرى أعمالا كبرى انبنت على أسس ومناهج وقواعد بذل فيها جهد ضخم، ونجد رجالا ومصلحين عبدوا لنا الطرائق، وشخصيات وزعماء كان أملهم أن تتقدم الأمة، وأن يكون لها حظ في الارتقاء وفيما يحفظ شخصيتها الوطنية وقيمها الأصيلة.. ومن هؤلاء كتاب وسياسيون بذلوا النفس والنفيس في سبيل تحرير أوطانهم كـ: سعد زغلول، وخير الدين الزركلي، وعبد العزيز الثعالبي، وساطع الحصري، وعبد الحميد بن باديس، وعبد القادر المغربي، ومحي الدين القليبي، وعباس محمود العقاد، والإمام محمد عبده، والطاهر الحداد، والحبيب بورقيبة، وصالح بن يوسف، وعلي البلهوان، وفرحات حشاد، وأحمد بن صالح، والحبيب طليبة، وحسيب بن عمار، وأحمد بن صالح، وأحمد المستيري وأضرابهم..

فهؤلاء الأبطال في تقديري عاشوا من أجل الغير في ظل خضم الأحداث الكبرى، وتحمسوا لقضايا شعوبهم، كما تحملوا الأعباء الصعبة في أحرج الأوقات.. وهم وإن اختلفنا حول رؤاهم في بعض القضايا، لكن والحق يقال جميعهم كان له مرجع واف ومفصل مدروس، يبرز فيه الصور المثلى، التي تبين الكنز على صورة تأنس بها الأفكار وتقبلها العقول.

ومما يقال عنهم، بوجه عام: هم رجال صناديد قاوموا الاستغلال ومؤامرات التغريب، ولفتوا الأنظار في الثبات والإقدام، وعززوا كل الجهود المقترنة بالكفاح الشعبي وبالنهضات الاجتماعية، كما عاشوا عذابات السنين، وعرفوا الشيء الكثير عن مظالم المستبدين، وعما روجوه من افتراءات في بلاد العرب والإسلام.

في الموسوعات الفكرية:

ونحـن إذا ما عدنا إلى الموسـوعات الفكريـة وإلى عهد قريـب جدا نجد الصدى الواسـع عن حـراك هؤلاء الذين أحدثـوا انقلابا في الأفكار والأسـاليب، وانبعث عنهم ما ألهـب جوانح النفس، وما أعاد الروح للبناء النفسـي في المجتمعات العربية الصامدة.

فـ(الحـراك) كان نابعا من الذات.. وهدفه تقوية الروابط بين الأشـقاء، اعتمادا على الكفاح الشـعبي، وعلى لفت النظـر إلى ما هو رائـع وخصب.. ومثل (الحـراك) أيضا، (فكـرا تجديديا)، وحصيلـة ضخمة من الأسـرار مازالت تـروج وتقوي لـروح الأمـة، وتصـف تاريخهـا الفكري، وتطور عقليتها وما تفاخر به وتعتز ضمن مفاخر الزمن.

وشخصيا وجدت في الكثير من الموسوعات أخبارا شائقة تحكي عن الشـيخين: محمد السنوسي التونسي، ومحي الدين الخياط، وعن (فرسـان اللغة العربية) كـ: الدكتور محمـد عبد المنعم خفاجـي، وعبد الحميـد بن باديس، ومحمد الفاضل ابن عاشور، والبشير الإبراهيمي (-889 31965) الـذي تلقـى تعليمه علـى أيدي علمـاء الدين، وجاور في المدينة المنورة، ثم تطلع إلى العمل من أجل العودة بالدين إلى بسـاطته الأولى في ظل موجة جمال الدين الأفغاني: (1897-1839م) إلى المشرق، وهو من كبار المدافعين عن "اللغة العربية" والقائل عنها: "اللغة العربيـة في القطر الجزائري ليسـت غريبـة ولا دخيلة، بل هي فـي دارها وبين حماتها وأنصارها، وهي ممتدة الجذور مع الماضي، مشـتدة الأواصر مع الحاضر، طويلة الأفنان في المسـتقبل، ممتدة مـع الماضي لأنها دخلت هـذا الوطن مع الإسـلام علـى ألسـنة الفاتحين، ترحل برحيلهم وتقيم بإقامتهم.."(1).

شخصيات لامعة في غمار أحداث العرب الكبرى:

فهكـذا كان المشـهد العربي، وكنتم ورأيتـم فيه أقلاما ناضلت ببسـالة عن الكيانات العربية، ودافعت عن "لغة العـرب" وعن أصالتهم، وتحدثت عن ممارسـات الأجانب في الحكم، وعـن معاناة العـرب وعذاباتهم، وألحت في نفس الوقت على صيانة المبادئ والقيم، وشـهرت بمن ابتعـد مـن الكتاب والمثقفيـن عن الجماهير الشـعبية،

بوصفهم حراسا للكلمة الصادقة وللفضائل.

فـكل هـذا حـدث فـي واقـع العـرب المضطـرب، وفي أصـداء نضالاتهـم.. وقد رأينـاه ماثلا وجليـا أمامنا في عديد الكتابـات وتحديدا في مجلات: (المنـار)، و(التمدن الإسـلامي)، و(الفتـح) فـي المشـرق، وفـي (شـمس الإسلام)، و(السـعادة العظمى)، و(المجلة الزيتونية) في تونـس ثم وفي مجلـة (المعرفة)، وصحيفـة (البصائر) الصادرتين بالجزائر، وفي (مجلة الوحدة) في الرباط(2).

أقلام جعلت الصدق شعارها:

واعتبارا لكل هذا، اسـتوجب أ، نقول بالصوت العالي: إن "الأقلام" لم تتأخر قـط في التعبير عن قضايا الأوطان، بل وغذت روح الإنتماء الوطني، وعززت الكفاح الشعبي.. ومـن هذه الأقـلام، أقـلام من بلـدان المغـرب العربي وصالح بن يوسـف، وابن باديس، وعلال الفاسي، وعلي البلهـوان، ومحي الديـن القليبي، وعبـد الكريم غلاب، وعبد اللّه قنون، وفرحات حشـاد، والمنصف المستيري.. والقائمة طويلة..

إذن كان للأفلام دور، والأقلام أحيت فينا التفكير الصائب، وحررتنا من الجمود، وعرفتنا بما هو متشابه في التكوين والخلق والمزاج، وبفضلها تأثرت الأجيال، فكان إيقاظ الهمم وتحريك السواكن.. وشخصا تذكرني الأقلام العربية باستمرار، بكوكبة من المجاهدين الصادقين منهم: الخضر حسين، ومحمد الفاضل ابن عاشور، والطاهر الحداد، وعبد الحميد بن باديس(3) ومحب الدين الخطيب الذي مارس الكتابة وتعلق بحب الأوطان العربية وعاش أكثر من نصف قرن يدعو إلى حماية الأوطان، وإلى دراسة ميراث العرب والرد على خصومهم.. ووجدناه أيضا في مرحلة حاسمة من واقع العرب يحث الشباب على أن ينهض بالعلم والتربية.. وصفحاته ظلت مدوية في صحيفة "الفتح" التي أنشأها لهذا الغرض، وضمت 30 ألف صفحة لتصحيح التاريخ الإسلامي ولمعارك العرب الكبرى.

وأنا شخصيا لست أعرف مفكرا أوضح رأيا في ربط الإسلام بالعروبة منه، ولا حرصا على توجيه الشباب ليقبل على الدراسة والتعلم.. ويؤكد على هذا بقوله في افتتاحية مجلة "الزهراء" عام 1924 بقوله:

"تأصل في نفسي منذ أعوام كثيرة أن الناطقين بالضاد، لا تثبت لهم نهضة، ما لم تكن قائمة على دعامتين:

* الأولى: في الاحتفاظ بتقاليدنا التاريخية وأوضاعنا الوطنية ولساننا العربي الأصيل.

* والثانية: في الاقتباس من وسائل القوة لدى الغرب(4).

فتلك هي قناعات الرجل ورؤاه الفكرية في ذلك الوقت العصيب لذا.. ونحن كتونسيين إذا ما عدنا إلى كتابات العرب في أيام محنهم، نجدها كتابات صادقة وعبرت عن مواقف وأزمات وانشغالات.. و(الأقلام التونسية) بانت للجمعي في هذا الزحام، أقلام شجاعة ألهبت العواطف، ووجهت النفوس لتقويض صروح الظلم.. ومن بين الكتابات المتميزة في هذا الشأن كتابات الزعيمين: فرحات حشاد (أب الشغالين)، وأحمد المستيري: (أب الديمقراطية) في تونس الحديثة.

أحمد المستيري في دروب الحياة:

والحديث عن الزعيم الكبير أحمد المستيري، وعن سيرته ومساراته السياسية والفكرية، هو حديث شائق، ويذكرنا بصفوة من عظماء الأمة كـ: شكيب أرسلان وحسين الشافعي، والحبيب بورقيبة، وصالح بن يوسف، والمنجي سليم، وفرحات حشاد، والمهدي بن بركة.. وأضرابهم.. وبالنخب الفكرية الصادقة ذات الأثر الخالد من نقابيين وسياسيين كـ: أحمد بن صالح، والمنجي سليم، والحبيب طلبية، وحسين بن عمار، ومصطفى الفيلالي، ومحمد مزالي.

والرجل كما أثبتته الأيام، شق طريقه دون جلبة أو ضوضاء، وعاش يعمق هذه الطريق بالكد وبمقومات الكفر والإيمان، وبنظافة اليد، وبكل ما يبدو دقيقا في التراث العربي الإسلامي، شأنه شأن الكثيرين من أبناء العاصمة التونسية.

هو فخـور جـدا بعائلته وبإخوتـه وجده، وأبيـه وعمه.. وفخور أيضا بأصدقائه في أيام الصبا والدراسة والكفاح، وسـجل لأسـاتذته كـ: محمد الصالح الخماسي، والهادي عويج، وسـعيد شـويرف.. والرجل عاش فـي صباه في المرسـى أين ولد في عـام 1925م وتعرف على أصدقاء لـه في المرسـى ومن كامـل البلاد لما اختلط بالشـبان في معاهد التعلم، كما كان يقظا كل اليقظة، وأسـعده الحظ أن يحضر بعض المناقشـات السياسية التي دارت فـي بيت جده (حمودة) كشـاهد صامـت لا يفهم الكثير مما يقال فيها.. وأحمد المستيري أمتعنا كثيرا لما تحدث عن أسـرته قائلا: "إني سليل عائلتين من أعرق عائلات العاصمـة وضواحيها، وقدم إليها أسـلاف والـدي (الحاج فـرج مـرزوق) مصحوبـا بابنه الحـاج أحمد مـن مدينة المنسـتير بالسـاحل في أوائل القرن الثاني عشـر(هـ) والثامن عشـر(م) واستقرا بنهج سـيدي الرصاص قرب حي باب سـويقة قبل أن ينتقـل جدي (حمودة) بعد قرن إلى (ضاحية المرسـى) حيث ولدت.. وأخذ أسـلافي لقب (المنستيري).

وهذا اللقب منتشـر في عـدة أنحاء من البـلاد، ويحمله المهاجرون من (المنسـتير)، وذلك على غرار غيرهم نم المهاجرين المنتمين إلى مدن أخرى.. وتحول المنستيري إلـى "المسـتيري) بحـذف النون عمـلا بقاعـدة اختزال الأحرف المعروفة عند اللغويين"(5).

وأحمد المسـتيري سـليل العائلة الوطنية، والذي التحق بالمدرسة الابتدائية بالمرسى عام 1931م، ومنها انتقل إلى مدرسة (خير الدين) بنهج (التريبونال) بالعاصمة مع شـقيقه العادل، بدأ ولوعه بالسياسة في سن المراهقة وتأثر بجده (حمودة ووالده)، حيث كانا من أوائل من آزروا الشيخ عبد العزيز الثعالبي يوم أسس (الحزب الدستوري الحر) عام 1920م وأول اجتماع عقدته (اللجنة التنفيذية) التأم في بيت جده (حمودة) بالمرسى(6).

والحفيد حدثنا عـن جده (حمودة) يقول: "كان من ضمن الوفـد الذي عرض ميثاق الحزب على الملك الناصر باي، كمـا كان ضمن الوفـد الذي سـافر إلى فرنسـا لعرض (القضيـة التونسـية) على أعضـاء البرلمان الفرنسـي المهتمين بشؤون المسـتعمرات ووزارة الخارجية، وبعد سـنوات مع تقدمه في السـن، سـلم المشـعل إلى ابنه (المنصـف)، الذي عرضه في (اللجنة التنفيذية) على أنه بقي مـع ذلك يتابع عن كثـب قضايا السـاعة، ويتحدث فيها مع أبنائه وأصدقائه.."(7).

وأحمد المسـتيري، الـذي أنهى دراسـته الجامعية خلال صائفـة 1948 بإحـرازه علـى الإجازة فـي الحقوق من كلية باريـس، دخل معترك الحيـاة المهنية والعامة في سـلك المحاماة في سوسة ثم في العاصمة ويعتبر هذه الفتـرة هي فترة مناسـبة له ومكنته مـن الإطلاع على سـير دوالي الإدارة التونسـية في عهد الحماية.. ويقول عنها: "اكتشـفت فيها مـدى نفوذ الفرنسـيين على كل المسـتويات، حتى فـي القطاعات الخاصة بالتونسـيين وحدهـم كالمحاكم التونسـية، وإدارة الأوقاف، والإدارة الجهوية".

و(المستيري) الشـاب المثقف، له إسهامات جدية ووافرة فـي منظمات المرسـى في أيام شـبابه كـ: (الكشـافة)، و(الهـلال الأحمـر)، و(الشـبان المسـلمين)، و(الشـبيبة الدسـتورية)، و(شـعبة المرسـى)، وشـارك فـي هـذه الأنشـطة كل مـن الطيـب المهيـري، ومحمـد الصالـح الشـاهد، وحسـين النيفـر، وصالـح المهـدي، وصالـح المهيري، والحبيب البوزيري، ومحمد السنوسي.

و(المستيري) المناضل عاش أحداث 9 أفريل 1938م عن قـرب مع صديقه الوفي حسـيب بن عمـار.. وقص علي حكايـات كثيرة عن أحـداث 9 أفريق وعـن بطليها: علي البلهوان والمنجي سـليم، وقال: "كنا كشـبان ووطنيين نتهيـأ للقيـام بالمظاهرة اسـتعدادا لمرحلة جديدة في الكفاح التحريري تحت لواء الدستور الجديد.. وهنا سعدت بزيارة المناضل محمد الماطري، وزوجته، وبإلحاح شديد أن يتواجد فـي مقدمة صفوف المتظاهرين على الرغم من ابتعاده عن (حركة الدسـتور الجديد) يومئذ.. ويومها اسـتجاب محمود الماطـري لطلبي، فـكان في الصفوف الأماميـة المطالبيـن ببرلمـان تونسـي.. ومـا أن علـم الزعيـم بورقيبة بحضوره.. حتى تسـاءل قائـلا: "لماذا أحضرتـم الماطـري؟ ألـم يقل لنـا إنه ابتعـد عنا وعن الدستور الجديد؟..".

أحمد المستيري كما عرفته:

تعـود بدايـات معرفتـي بأحمد المسـتيري إلـى صائفة عام 1967 يوم أقام لنا عشـاء، كأعضاء للجنة التنسيق ببنزرت، بوصفه رئيسـا للقائمـة البرلمانية في الجهة.. وفي العشـاء تحدث إلينا عن النكسـة التي حلت بمصر،

وعن القضية الفلسطينية وما حدث في تاريخها الممتد. وكان أحمد المستيري جادا في حديثه، وكشف لنا عما حل بالخيال والعاطفة، ويستخلص من حديثه أن قضايا الأوطان لا تحل إلا بالديمقراطية، وبحرية الشعوب، وبإحياء إمتدادات تاريخها وكتابته من جديد. ويتم لي أيضا لقاء آخر معه (بالمصيدة) في بنزرت في نفس الصائفة، ويومها كنت مساعدا لرئيس بلدية بنزرت، ورئيسا للجنة الثقافية الجهوية بها.. واللقاء تم بمناسبة توزيع الجوائز على المتفوقين من أبناء العسكريين في (البحرية).. ومما استرعى انتباهي في هذا الحفل البهيج، أن الحضور كان مكثفا.. والحدث أعطاني صورة جادة عن (قضايا الرجل) وعن اهتماماته الذهنية والعلمية والسياسية.. وبان لي الوزير ومن خلال كلمته وتوجيهاته للمتفوقين، أنه مثقف، وواسع الأفق، ومحب لوطنيه، ومؤمن بأمته العربية وبفكرها وقيمها، وشديد الحرص على توجيه أبنائه المتفوقين بزاد معرفي جديد في الإرشاد..

.. وتلك المناسبة أتاحت لي أن أهديه كتابا لي في (أدب الرحلة) وهو (يوغسلافيا كما شاهتها).. وأثنى علي قائلا: "الكتابة كما تعلم، هي رسالة سامية.. والكاتب من حقه أن يكتب بحرية، وعليه أن يثابر ليصل إلى الغايات المنشودة.. وشخصيا إني متابع لما يكتبه أدباؤنا أمثال: عزالدين المدني، والحبيب الجنحاني، وحسن نصر.. ومتابع لما تنشره أنت في (الصباح)، وفي (مجلة الشباب) تحديدا".

وتمضي الأيام، وتتعدد متابعاتي لنشاطاته السياسية، ثم كان لي موقف مؤيد له على إثر (مؤتمر المستيري) 1971 نقل له الخبر كل من المناضل حسب بن عمار، والأخ محمد الصالح بالحاج.

وتبعا لما حصل تعززت ثقة المستيري بي، واقتبلني فيما بعد مرارا بمكتبه بنهج الجزائر بتونس، وكثيرا ما كان بحضور الأخ محمد الصالح بالحاج المناضل المعروف.. وهنا.. تعددت أحاديثي وحواراتي مع الرجل، وأحيانا ينضم إلينا المؤرخ المعروف الراحل المنصف الدلاجي، (المسؤول عن قسم أرشيف الدولة).

• وسألته يوما: كيف استلمتم مقاليد الأمور في بدايات الاستقلال؟.. وهل كانت هناك صعوبات؟..

• وأجاب: بالطبع، ولكن بفضل حماسنا أقدمنا على تجسيم الاستقلال على أرض الواقع.

• وعن دور حشاد العظيم في الكفاح التحريري؟..

• أجابني: حشاد كان زعيما وعظيما بحق، وله دور مهم في النضال الشعبي، واجتمعت فيه خصال عديدة: العبقرية والوطنية الصادقة، واللطف، ودماثة الأخلاق.

• ولماذا منعتكم السلط الفرنسية من الإدلاء ببيان للشعب يوم 20 مارس 1956 بواسطة الإذاعة؟

• أجابني: توجهت مع الصادق المقدم ويومها كان رئيس حكومة بالنيابة إلى (مبنى الإذاعة) للإدلاء ببيان إلى الشعب، فمنعونا من الدخول، وبقينا مدة ننتظر الترخيص من "المندوبية السامية الفرنسية" دون جدوى.

وعن أزمة الخلاف بين بورقيبة وصالح بن يوسف.. قال: "إن المفاوضات كانتصعبة ولا سيما بالمفاوض الأصلي المرحوم المنجي سليم.. والضغوطات هي متعددة ومتناقضة.. هي لم تصدر عن (الباي) ولا عن رئيس الحكومة الطاهر بن عمار، بل وأساسا عن رئيس الحزب وكاتبه العام صالح بن يوسف" وذكر لي أنه حضر في (جنيف) مقابلات صالح بن يوسف مع المنجي سليم، والطاهر بن عمار، والعزيز الجلولي، وصالح بن يوسف يستدل بآراء الرئيس جمال عبد الناصر في تقديم بعض المقترحات لتعديل فصول من الاتفاقيات..

تونس.. وأزمة الخلاف بين بورقيبة وبن يوسف:
والخلاف كما هو معلوم، أحدث رجة في البلاد، وكاد أن يتحول إلى حرب أهلية، وفي وقت كانت الظروف تستدعي وحدة الشعب وتجسيد حريته.. ومنشأ الخاف يعود إلى التنافس على زعامة الحزب، واشتد بعد عودة صالح بن يوسف إلى تونس في سبتمبر 1955م ورفض صالح بن يوسف الدعوة الموجهة إليه لحضور (مؤتمر صفاقس) في 15 نوفمبر.. فقد طالب صالح بن يوسف بتأجيله ليتمكن من جمع أنصاره وتشريكهم فيه.. وبقول أحمد المستيري في هذا الشأن: "كان الاختيار صعبا بين الجرلين بالنظر إلى الغموض السائد في الأوضاع والريبة في مآل الأمور.. وتحدثت مع بورقيبة وبن يوسف، ومع أنصار كل منهما، ومع الباهي الأدغم وعلي البلهوان والمنجي سليم وتبين لنا يوما كما قال الطيب المهيري في المسألة: من هو رقم (1) ومن هو رقم (2)؟ وصالح بن يوسف لا يرضى بأن يكون رقم (2) في المعادلة.
ويذكر أحمد المستيري أن الظروف التاريخية جعلت فرنسا تسرع بالإعتراف بالحكم الذاتي لتونس، بعد تأثير ثورة الجزائر عام 1954م وثبات ومثابرة المقاومة المغربية.. هذا كان له تأثير، على الاسة الفرنسيين ليكونوا مدفوعين للتنازل لبورقيبة وللإمضاء على (بروتوكول 20 مارس 1956م)(8).
والزعيم أحمد المستيري الواثق بقدراته وآرائه وبما أنجزه في مجالات التنمية والإصلاح، تولى مهمات سياسية كبيرة في دولة الاستقلال منها: وزارة المالية، ووزارة الداخلية، ووزارة الدفاع الوطني، ووزارة العدل، كما كان سفيرا لتونس في عدة بلدان عربية وصديقة: كالقاهرة، والجزائر، وموسكو.
وفي أيم اضطلاعه بوزارة العدل وتقلدها في أفريق 1956 إلى موفي 1958م أنجز عدة محاكم إبتدائية واستئناف لتقريب المحاكم من المتقاضين، كما م في عهده توحيد القضاء، وتنظيم مهنة المعاماة، والعدول المنفذين، وإصدار قانون الجنسية، وحل الأوقاف، وإصدار عديد المجلات مثل: (مجلة العقود والإلتزامات)، و(مجلة الأحوال الشخصية)(9).
فهذا.. هو أحمد المستيري، الذي عاش في خضم مراحل الكفاح الوطني وتعرض للمضايقات.. هو مناضل بامتياز، وزعيم بحق، وصاحب رؤية ورسالة، ونموذج، وصورة متجددة للسياسيين الكبار الذين أعطوا وبذلوا، وأوصوا الأجيال، لكي تحترم الكلمة الحرة، وبتعزيز الحكم الرشيد القائم على أن تسمع: (الصوت المؤيد والصوت المخالف لك).. هو خبرة وحيوية، وذكاء، ونظافة يد.. عرفته ضمن الوجوه السياسية في الحزب الدستوري، وحاورته في بعض الشؤون وتلازمنا لما التقينا مرارا في مقر (صحيفة الرأي) مع الإخوة: حسيب بن عمار، ومحمد مواعدة، وأحمد الكرفاعي، وإسماعيل بولحية، ومحمد الصالح بلحاج.. وكان المستيري مدركا للمواقف المطلوبة كما أسسنا (الرأي)، ومدركا لمقتضيات الإصلاح، ويعتبر أن المبادئ هي أغلى وأسمى القيم، وتجسمت لنا أقواله فيما أوصانا به حشاد وأحمد التليلي، ورفقاء لهما من النقابيين الشجعان أمثال: أحمد بن صالح، والحبيب طليبة وأبو بكر عزيز.
وأحمد المستيري هو مناضل نشيط، وودود لكل من عرفهم وعمل معهم.. وخياراته باستمرار، هي خيارات (اللعبة الديمقراطية) ولا يقبل لونا من التعددية (الديكور) الصالحة للاستغلال، لذلك استبشر بالثورة وقال عنها: "إنها المعجزة التونسية"، واستمعنا إليه يتحدث وأدلى بآرائه في الثورة، وفي متطلبات الثورة، وراسلته حول ذلك.

الهوامش:

1) انظر صحيفة (البصائر) الجزائرية العدد 415 عام 1948م وكتاب: (رواد الإصلاح: رشيد الذوادي ط4 2017 صفحات: 166-154.
2) انظر دراسة عن ابن باديس في (رواد الإصلاح): رشيد الذوادي ط4 صفحات 153-127.
3) انظر كتاب (مفكرون وأدباء): أنور الجندي ط بيروت ص198 وما بعدها.
4) المصدر نفسه ص 199 وما بعدها.
5) كتاب (شهادة للتاريخ): أحمد المستيري ط تونس 2011م ص13.
6) المصدر نفسه ص16.
7) المصدر نفسه ص18 وما بعدها.
8) شهادة للتاريخ ص90 وما بعدها.
9) انظر (شهادة للتاريخ: أحمد المستيري ص102 وما بعدها.

قامات في الذاكرة:

صديقي لطفي الخولي

د.أحمد القديدي

بدأت صداقتي الطويلة.. وأحيانا الصعبة.. ودائما الوفية.. مع طيب الذكر المرحـوم لطفي الخولي عام 1973 وفي شـهر مـارس أي منذ 48 عاماً , وحين كان لطفي في سجن الرئيس الراحل المرحوم محمد أنور السادات. كيف ذلك؟

لـم أكن في ذلـك العهد أعرف لطفـي الخولي معرفة شـخصية, إلا من خلال مقالاته بمجلة الطليعة التي كنا نطلق عليها لقب المجلة التقدمية أو اليسـارية.. وحين نظمت الجمهورية التونسـية المؤتمر الثامن للادباء العـرب.. كنت أنا عضواً فـي المكتب التنفيذي لاتحاد الكتاب التونسـيين الذي أنشـأناه عام 1970 لأول مرة في المغرب العربي أسـوة بالاتحادات العربية والأوروبية.

وبالطبع استقبلت بلادي تونس في مارس 1973 الوفود العربية وتضم أدبـاء كبـاراً كنا نعرفهم ونقرأ لهم مثل عبد الوهـاب البياتي من العراق والصديق الزميل في جامعة قطر الاسـتاذ الدكتور حسام الخطيب ضمن الوفد السـوري وجاء الوفـد المصري بعمالقـة الأدب العربي آنذاك عزيز أباظـة وصالح جـودت وأحمد رامـي ومدير مجلـس الثقافـة عبدالعزيز الدسـوقي وهم من الجيـل المصري الذي زخر القرن العشـرون بأدبهم وشـعرهم ومقالاتهـم.. الى درجة أن أحـد أعضاء الوفـد الكويتي وكان معي في المطار نستقبل الوفد المصري فإذا به حين شهد كوكبة الأدباء الكبـار تنزل من سـلم الطائرة إلتفـت إلي وقال مداعبـاً مازحاً: اللّه... ما بقى إلا أحمد شوقي باشا! وحين شرع المؤتمر في أشغاله واجتمعت لجنة سـميناها بلجنة مساهمة الأدب في عملية التقدم, أخذت الكلمة بحضور وفـد مصـر وطالبت بإطلاق سـراح لطفي الخولي... وثار ضدي الاسـتاذ عبدالعزيـز الدسـوقي وتقـدم الوفد المصـري بمذكرة تنـدد بمداخلتي ووجـه الي رئيس اتحاد الكتاب التونسـيين المرحوم محمـد مزالي لوماً حازماً.! لأنني أمثل اتحاد الكتاب للبلد المضيف للمؤتمر ولا يجوز ـ حسب

> إن الذي لن أنساه أبدا للطفي الخولي ـ على الصعيد الشخصي ـ هو استمرار وفائه في صداقتنا بعد أن غادرت تونس في ظروف اواخر العهد البورفيبي واقمت في باريس منذ العام 1986 منفيا ملاحقا من أنتربول فقد كانت رسائل لطفي الخولي ومكالماته الهاتفية تشد من ازري وتخفف معاناة الاجتثاث عن الوطن

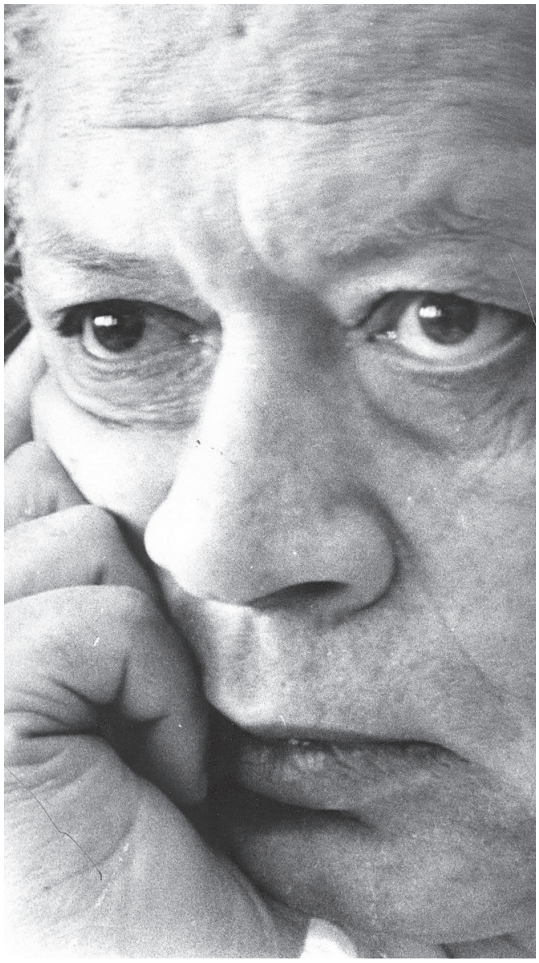

رأي بعض زملائي ـ أن أشكك في مصداقية الوفد المصري الكبيرلأني عضو في الهيئة المديرة للإتحاد ... وللحقيقة كنت ومازلت من المقدرين لشعراء وأدباء كبار مثل صالح جودت وأحمد رامي رحمهما اللّه إلا أن الضمير كان يخزني حين أتذكر في ذلك الحين بأن لطفي الخولي كان في السجن.

وبعد سنوات قليلة حين أطلق الرئيس السادات سراحه والتقينا وجدت لدى لطفي فكرة عن حادثة المؤتمر الثامن للأدباء وعن موقفي (الشجاع كما وصفه هو) وأصبحنا نلتقي ونتناول العشاء مع بعضنا في مناسبات تكررت كثيراً بفضل وجود جامعة الدول العربية لسنوات طويلة في تونس وبفضل صديق مشترك ومثقف تونسي كان موظفا ساميا بجامعة الدول العربية هو الأستاذ أحمد الهرقام أحد رواد القصة القصيرة.

بعدها تعددت لقاءاتنا لأنه كان يريد أن يعطي لمسؤولياته بعداً قوميا عربيا وأن يوظف خبرته واتصالاته وعلاقاته في مجال الفكر القومي ويربط بين الجناح المشرقي والجناح المغاربي للعالم العربي وأحسب شخصيا أنه وفق في ذلك توفيقاً كبيراً نظراً لشخصيته القوية ودماثة أخلاقه وسعة اطلاعه وامتداد شبكة علاقاته العربية في مجالي السياسة والثقافة.

وإن الذي لن أنساه أبدا للطفي الخولي ـ على الصعيد الشخصي ـ هو استمرار وفائه في صداقتنا بعد أن غادرت تونس في ظروف اواخر العهد البورفيبي واقمت في باريس منذ العام 1986 منفيا ملاخقا من أنتربول فقد كانت رسائل لطفي الخولي ومكالماته الهاتفية تشد من ازري وتخفف معاناة الاجتثاث عن الوطن, وكان حتى وهو يغادر المستشفى بعد عملية جراحية في القلب يأخذ قلمه ويكتب لي بل ويتدخل لدى اصدقائه من رؤساء تحرير بعض الصحف الخليجية ليوصي بي خيراً.

ولعل آخر حديث لي معه تخلله بعض الخلاف المهذب حول مشروع كوبنهاجن وما عسى تجنيه القضية الفلسطينية من الحوار المفتوح وغير المشروط مع من يسميهم لطفي الخولي احباء السلام في اسرائيل.

رحمك اللّه اخاً كريماً ومفكراً وفياً وعربياً حياً, ظل في صف الكفاح القومي الديمقراطي على مدى نصف قرن, ورحمك اللّه صديقاً شخصياً لم يفارقني كأغلبية الناس في النعماء والبأساء فوجدته الى جانبي حين كنت في الاولى وظل يعضدني ويساعدني ويعينني حين كنت في الثانية, وهو من ذلك المعدن الاصيل النادر من اهل الفكر الذين لا يحسبون في الصداقات للخسارة والربح ولا يمدون لك يد المصافحة والعون وفي جيوبهم آلة حاسبة أو مقياس غضب ورضى أصحاب السلطة عنك رحمك اللّه ايها الصديق وجزاك اللّه عن ضميرك وكفاحك الف خير وهو أحكم الحاكمين يعلم ولا نعلم

مناظرة السليمانية:

واستذكارات الحوار العربي - الكردي

د. عبد الحسين شعبان

أكاديمي ومفكر عربي من العراق

كان أول حـوار عربـي – كردي خارج الأطر الرسـمية تقـرر قبل 30 عاماً، حيـن اجتمعت نخباً فكريـة وثقافية وحقوقية و سياسـية مـن العرب والكـرد بدعوة من المنظمـة العربية لحقوق الإنسـان في لندن، التي تسـجل لها هـذه المبادرة، وذلك لمناقشـة جوهر الموقف من حقوق الشـعب الكردي و أهم الإشـكاليات النظرية والعملية والقضايا الخلافية لبحثها ومناقشـتها بروح الشـعور بالمسـؤولية والحرص وبكل صراحة وشـفافية، حيث تم تبادل وجهات النظر واستمزاج الآراء والاسـتئناس بأفكار متنوعة بشـأن واقع العلاقات العربية - الكردية وآفاق المستقبل ، خصوصاً بعد المآسي والارتكابات التي تعرض لها الشـعب الكردي، لاسـيما إثر مشـاهد الهجرة الجماعية الكردية المرعبة 1991 بعد حملة الأنفال السيئة الصيـت ومـن ثم قصف قضاء حلبجة في 16 – 17 آذار/ مارس1988 بالسـلاح الكيماوي وغـاز الخردل، الذي أودى بحياة بضعـة آلاف، وذلـك قبيل وقف الحرب العراقيـة – الإيرانية (1980 - 1988) التي أعلن عن انتهائها في 8 آب/ أغسـطس 1988 ، بقبول إيران لقرار مجلس الأمن الدولي رقم 598 الصادر في العام 1987 .

لمعان الفكرة

حين علمت أن وفد الجبهة الكردستانية وصل بغداد للتفاوض مع الحكومة العراقية، لمعت برأسي فكرة الحوار العربي - الكردي، وذلك بعيد انسحاب القوات العراقية ، إثر حرب التحالف ضد العراق 17/1/1991 من الكويت وصدور قرار مجلس الأمن الدولي رقم 688 الخاص باحترام حقوق الإنسان، وذلك بعد فشل انتفاضة آذار / مارس 1991 ضد النظام الحاكم في العراق، فطرحت الفكرة في محاضرة لي في ديوان الكوفة كاليري في لندن وسط حشد كبير وذلك يوم 17 نيسان/ أبريل 1991، وكانت المحاضرة بعنوان " المهجرون العراقيون والقانون الدولي"، وهي موثقة بكتابي " عاصفة على بلاد الشمس"، دار الكنوز الأدبية، بيروت، 1994 . وهو ما نشرته جريدة الحياة (اللندنية) في 28/4/1991 . ولكن الفكرة اختمرت في ذهني وقررت الإشتغال عليها بسبب تباين المواقف واختلاف وجهات النظر خلال وبعيْد المفاوضات الحكومية - الكردية.

اعتبارات موضوعية وذاتية

تعود قناعتي بفكرة الحوار العربي - الكردي إلى عدد من الإعتبارات أهمها:

أولها - الموقف المادي الجدلي "الماركسي" من مبدأ حق تقري المصير والذي مثل رؤية أممية - إنسانية كانت وما تزال صالحة عند الحديث عن حل مشكلة التنوع الثقافي، لاسيما المتعلق بالهويات القومية في المجتمعات والبلدان المتعددة الثقافات ، والذي تجسد في جوانب عملية إتخذتها الحركة الشيوعية في العراق منذ العام 1935 حين رفعت شعاراً "على صخرة الإتحاد العربي - الكردي تتحطم مغامرات الإستعمار والرجعية"، وذلك انطلاقاً من إيمانها بحق تقرير المصير للشعب الكردي، والذي انعكس على نحو ملموس في الكونفرنس الثاني للحزب العام 1956 الذي أكد على " الإستقلال الذاتي" لكردستان في إطار التحالف القوي بين "حركة الانبعاث القومي العربي والحركة القومية الكردية وتطلع الشعب الكردي إلى التحرر والوحدة القومية"، فالاستعمار هو الذي فرق كردستان وهو الذي شجع سياسة الإضطهاد القومي في العراق، وهو الذي قسم البلدان العربية كما ورد فيه.

وثانيها - علاقاتي الكردية وصداقاتي الحميمة مع العديد من الكرد، خصوصاً فترة دراستي في جامعة بغداد، وسبق لي أن رويت الكثير عنها في مناسبات مختلفة يضاف إلى ذلك معرفتي بواقع الاضطهاد والإستلاب الذي عانى منه الشعب الكردي، وذاكرتي الأولى لإحدى المناسبات وأنا فتى حين اطلعت على بيان من صفحة واحدة، وجهها الأول باللغة العربية ، ووجهها الثاني باللغة الكردية وهو ما أثار فضولي الشديد آنذاك (ربما كان بمناسبة كردية أو عيد نوروز)، فضلا عما أثار قدوم الزعيم الكردي الكبير الملا مصطفى البارزاني من المنفى في العام 1958 من مشاعر تضامن ضلت عالقة بذهني.

وثالثها - انخراطي في أعمال جماهرية مبكرة بشأن القضية الكردية منذ العام 1961 وأنا في بدايات عضويتي في الحزب الشيوعي، ومنها مشاركتي في تظاهرة تدعو للسلم في كردستان في العام 1962 ، كذلك التوقيع على عريضة (مذكرة) موجهة إلى الزعيم عبد الكريم قاسم تطالبه بوقف الحرب ضد الحركة الكردية وتدعو إلى حل القضية الكردية بالإعتراف بحقوق الشعب الكردي، وذلك من خلال السلم والحوار. وقد ساهمت في جمع تواقيع العشرات من الأصدقاء حينها.

ورابعها - بعض الملاحظات المبكرة التي تولدت لدي بشأن بعض مواقفنا من القضية الكردية، ومواقف القوى الأخرى، بما فيها القوى القومية الكردية. وهنا أذكر على سبيل المثال لا الحصر الموقف من رفع شعار "السلم في كردستان"، الذي نظرت إليه في فترة لاحقة باعتباره شعاراً عاماً يصلح لمنظمة مجتمع مدني، أو جمعية إنسانية لا لحزب عريق ذو تاريخ عريق ومواقف عريقة بصدد القضية الكردية، إضافة إلى الموقف الخاطئ والضار من حمل السلاح ضد الحركة الكردية في فترة الجبهة الوطنية مع حزب البعث في العام 1974، وهذه ربما تحتاج إلى مناقشتها في سياقها التاريخي دون تبريرها أو إغفالها.

وهناك جوانب أخرى كان لدي تحفظات بشأنها، وخصوصاً اتفاقية 6 آذار/ مارس لعام 1975 المعروفة بإسم "إتفاقية الجزائر" وهي اتفاقية مجحفة وغير متكافئة، وكنت قد توقفت عندها في وقت مبكر، أذكر بعضاً منها ما ورد في كتابي " النزاع العراقي - الإيراني"، بيروت، 1981، وما جاء في مقالة بحثية بعنوان: "القضية القومية الكردية والحزب الشيوعي العراقي"، مجلة الحرية، العدد 87 (1162) في 21/10/ ، 1984. ومقالة أخرى الموسومة "القضية الكردية والحرب العراقية - الإيرانية"، مجلة الحرية، العدد 96

(1171) فـي 23/12/1984،. وهـو ما أصبـح نهجاً لي في معالجة الوضع العراقي.

أين دور المثقفين؟

ويعـود الإهتمـام بالقضية الكردية أيضاً إلى شـعوري أن ثمـة دور للمثقفيـن لا بـد أن يلعبـوه كمـا كانـوا فـي خمسـينيات القرن الماضي، بهدف بلـورة رؤية خارج الأطر الرسـمية، بحيث تسـاهم فيهـا النخب الفكريـة والثقافية والسياسـية العربيـة - الكرديـة اليسـارية والقومية . وقد أخذت على عاتقي تحويل الفكرة إلى مبادرة، وهذه الأخيرة إلى فعل قابل للتنفيذ بتشـكيل لجنـة تحضيرية للملتقى الفكري الـذي اتخذ من "الحـوار العربي - الكـردي" عنواناً لـه، وضمت اللجنة التحضيرية للملتقـى أعضاء من اللجنة التنفيذية للمنظمة العربية لحقوق الإنسـان وسـاهم معنا مـن الأصدقـاء الكرد سـامي شـورش كعضو فـي اللجنة التحضيريـة، وانعقد المؤتمر في المركـز الثقافي الكردي الذي كان يرأسه محمد صديق خوشناو حينها.

وقـد اخترنـا عدداً متكافئاً مـن الكرد والعرب (25 + 25) بحيث يكـون المجموع 50 مثقفاً وحضرت وسـائل الإعلام المختلفـة، وبعـض الصحافيين مثل عبـد الوهاب بدرخان وحـازم صاغيـة وكاميـران قرداغـي، وكانت الشـخصيات العربيـة والكرديـة تمثـل الألـوان المتنوعة في السـاحة الثقافية والسياسية والفكرية.

ووقع اختيارنا من العراق على خمسة شخصيات أساسية تمثل كل منها تياراً فكرياً فعامر عبد اللّه رمزاً للشـيوعيين والماركسـيين وهانـي الفكيكي عن البعثيـن والقوميين والسـيد محمد بحر العلـوم عن الإسـلاميين وعبد الكريم الأزري أقـرب إلـى التيار الملكـي المنفتح وحسـن الجلبي من التيار الليبرالي الأكاديمـي القريب من التوجه الغربي، إضافة إلـى حضور عراقي لعدد من الشـخصيات المهتمة، ومن العرب حضرت شخصيات من مصر و سوريا والسودان و لبنان وفلسطين و المملكة العربية السعودية و البحرين و ليبيا.

ولعـل مثـل هذا الحضور النوعـي والجغرافي كان الأول مـن نوعه في إطـار حوار مفتـوح دون أجندات مسـبقة أو إصطفافـات مبيتة، بل كان الغـرض منه التعرف على واقع المطالب الكردية وعلى لسـان الكرد بشـكل حر وفي إطار مواقـف عربيـة بعضها يسـتمع لأول مرة إلى واقـع التنوع القومـي فـي العراق، ناهيـك عن ما تعرض لـه الكرد من مظالم.

وكان التمهيد لذلك الحوار محاضرة ألقيتها في مركز آل البيت الإسـلامي في لندن (بإدارة السيد محمد بحر العلوم) والموسومة "القضية الكردية في الفكر السياسي العراقي " (31/5/1992)، ومحاضـرة أخـرى فـي المركـز الثقافـي الكردي، نشرتها في جريدة الحياة بعنوان:" الفيدرالية وحق تقرير المصير: جدل الحاضر والمستقبل"، (حلقتان في 2 و 3 آب/ أغسطس 1992).

القرار 688

ترافق ذلك التوجه بعد فشل مفاوضات بغداد و صدور القرار 688 في 5 نيسـان/ أبريـل 1991 من مجلس الأمن الدولـي حيث عـادت القضية الكردية إلـى الأروقة الدولية، وخصوصـاً في الأمـم المتحدة، حيـث أكد القـرار المذكور على وقف القمع الـذي تتعرض له المنطقة الكردية وبقية مناطق العراق، بل اعتبر هذا القمع "تهديداً خطيراً" للسلم والأمـن الدوليين، ودعا إلـى احتـرام الحقوق السياسـية لجميع المواطنيـن العراقيين، وذلك في إطار الدعوات التي ارتفعت لاحترام حقوق الإنسـان، لاسـيما بعد تحلل الكتلة الإشـتراكية في نهاية الثمانينيات، كما طلب تقديم تقرير دوري إلى الأمين العام للأمم المتحدة.

وبسـبب مشاهد الهجرة الجماعية وما رافقها من دعوات إنسـانية، وأخـرى تتعلـق بتداعيـات مـا بعد غـزو الكويت وتدميـر العراق، قـررت حكومات كل مـن الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسـا منع الطيران العراقي من التحليق فوق خط العرض 36 باعتباره منطقة آمنة "الملاذ الآمن " Safe Haven ، وقد شـملت المنطقة الكردية التي تأسسـت فيها إدارة ذاتيـة بعد إنسـحاب الإدارة الحكومية في نهاية العام 1991 وإجـراء إنتخابـات لأول برلمان في كردسـتان (ربيع العـام 1992) ، وتأليف أول حكومة لإقليم كردسـتان، الذي قـرر برلمانه فـي 4 تشـرين الأول / أكتوبـر 1992 اختيار الفيدرالية كشـكل للعلاقة المسـتقبلية مع عـرب العراق. وهو ما تقرر في مؤتمر صلاح الدين للمعارضة

وإذا كان مـن يقـرر مصير العلاقـة العربية - الكردية هي الجهات السياسـية، خصوصاً القابضة على السـلطة، فـإن رأياً عاما يمثل تيـارات مختلفةً وبقوة ناعمة ومتنوعة ، وخصوصـاً بحضور نوعي للمثقفيـن، يمكن أن يؤثر في التوجه العام، وذلك بالتراكـم والتطور التدرجي، حتى وإن جاء بعد حين. ولم يكن بيان 11 آذار /مارس 1970 ، سـوى

> **إن فكرة الحوار تنم عن رغبة في إيجاد حلول ومعالجات، ووضع مخرجات للتطبيق يمكن أن تكون خلفية لأصحاب القرار، فالحوار العربي – الكردي، الذي كنا وما زلنا ندعو له هو حوار معرفي وثقافي وفكري وحقوقي**

ثمرة لتراكم كمي طويل الأمد وصل إلى مثل هذا التغيير النوعي.

إن فكرة الحوار تنم عن رغبة في إيجاد حلول ومعالجات، ووضع مخرجات للتطبيق يمكن أن تكون خلفية لأصحاب القرار، فالحوار العربي – الكردي، الذي كنا وما زلنا ندعو له هو حوار معرفي وثقافي وفكري وحقوقي يبدأ من منطلقات المصير المشترك والحقوق المتكافئة وتوسيع الخيارات بما يستجيب لمصالح الشعبين العربي والكردي، ومن مقاصده أيضاً لفت الإنتباه إلى أهمية حل القضية الكردية كمسألة مركزية بالإرتباط مع مسألة الحكم في العراق على صعيد السلطة والمعارضة، وكان شعار "الديمقراطية للعراق والحكم الذاتي لكردستان" يمثل جزءًا مهماً من الحركة الوطنية وعموم الحركة الكردية منذ الستينيات.

والحوار يعبر عن درجة عالية من الوعي والمسؤولية والشجاعة في تناول المشكلات بصراحة ووضوح وأفق مستقبلي أيضاً، دون نسيان الحواجز الفعلية والوهمية التي تعترض هذه الطريق، بما فيها مواقف بعض القوى القومية العربية السلبية ولا أبالية الحركة الدينية الناشئة التي لم تتخذ موقفاً فعلياً من الحقوق الكردية حتى العام 1992، بل ظل موقفها أقرب إلى جملٍ عمومية متفرقة.

مناظرة بعد 30 عام

على هذه الأسس والخلفية التأمت مناظرة بعد 30 عاماً في مدينة الثقافة والجمال السليمانية ضمت كاتب السطور والسياسي والمثقف الكردي الفطن والجريء ملا بختيار (حكمت محمد كريم) القيادي في حزب الإتحاد الوطني الكردستاني الذي أسسه الرئيس جلال طالباني في العام 1975 ، لتناقش بجو حضاري وشفافية عالية المشكلات القديمة والجديدة، بما فيها ما احتواها الدستور النافذ لعام 2005 ، وكان هدفها الأساسي البحث عن المشتركات وتوسيع دور المثقفين في تعزيز العلاقات بحثاً عن السلم والمساواة والجمال.

جدير بالذكر أن المناظرة التي خصصت لها جلسة مستقلة و لقيت اهتماماً بالغاً، حيث تم نقلها مباشرة عبر يوتيوب، كانت ضمن جدول أعمال فعالية ثقافية عربية تم تنظيم جلستها الأولى في مدينة العمارة (جنوب العراق) لتجمع عدد من المثقفين العرب تحت عنوان "مؤتمر القمة الثقافي" الذي ينسق أعماله الأديب محمد رشيد، فجاءت المناظرة مترافقة مع انعقاد الجلسة الثانية في مدينة السليمانية.

وكان الحوار خارج دائرة المدح أو القدح وبعيداً عن الولاء أو العداء أو التأييد أو التنديد أو التقديس أو التدنيس، بل تم طرح القضايا ذات الإهتمام المشترك بروح الصداقة المتبادلة وضمن أجواء حضارية ومستقبلية، بما فيها تباين وجهات النظر واختلاف زوايا الرؤية في الماضي والحاضر.

فماذا يريد الكرد من العرب؟

وماذا يريد العرب من الكرد؟

وكيف السبيل لطي صفحة الماضي البغيض خصوصاً تعامل الحكومات المتعاقبة مع حقوق الشعب الكردي، تلك التي اقترنت بالتمييز والعسف والاضطهاد، ومنذ تأسيس الدولة العراقية في العام 1921 ، وكان أكثرها قسوة من جانب النظام البعثي السابق، على الرغم من أن الإعتراف بحقوق الشعب الكردي الأولية، كان قد تقرر في بيان 11 آذار/ مارس 1970 وأدرجت في الدستور العراقي الصادر في تموز/ يوليو 1970 ، وتلك مفارقة كبيرة أيضاً تستحق التوقف عندها، وقد سبق لي أن أضئت بعض جوانبها.

نصوص دستورية

كان أول نص دستوري تقرر فيه "شراكة العرب والكرد" في الوطن العراقي قد ورد في الدستور العراقي المؤقت الذي خطه يراع الطيب الذكر الفقيه القانوني حسين جميل في العام 1958 بعيد ثورة 14 تموز/ يوليو، وأهم من ذلك، بعد اتفاق 11 آذار/ مارس 1970 حيث ورد النص دستورياً " أن العراق يتألف من قوميتين رئيسيتين هما العربية والكردية ...." وهو إعتراف صريح وواضح بالحقوق

السياسية والإدارية والثقافية، وكل ذلك في إطار الإئتلاف والإختلاف، من خلال الإقرار بخصوصية الشعب الكردي في العراق، وهذه تقود منطقياً إلى الإعتراف بمقوماته بما فيها حقه في تقرير المصير.

وهذا لا يعني بالضرورة الانفصال كما يذهب البعض إلى ذلك، وهو إعتقادٌ خاطئ من أي جاء، فالعديد من القوميات والشعوب والمجموعات الثقافية والإثنية والدينية والسلالية واللغوية تعيش في دول متعددة الثقافات وفي إطار حقوق متساوية دستورياً، بغض النظر عن عددها وحجمها، لكن الإقرار بكيانيتها وخصوصيتها يمنحها مثل هذا الحق الذي يمكنها التمتع فيه كحق قانوني واستخدامه بطريقة إيجابية، وتعود المسألة في أغلب الأحيان إلى درجة تطور المجتمع والثقافة السائدة ودور النخب الفكرية والثقافية والسياسية من الأمة" المضطهدة" ومدى تضامنها مع الأمة "المضطهدة" حسب تعبير كارل ماركس " لا يمكن لشعب يضطهد شعباً آخر أن يكون حراً" ، أي لا بد من الاعتماد على شكل من أشكال الإستقلالية المتجسدة بالحكم الذاتي أو الفيدرالية أو الكونفيدرالية وصولاً إلى إقامة كيانية خاصة حين يصبح العيش المشترك مستحيلاً، وهو مثل الطلاق على حد تعبير لينين (أبغض الحلال عند اللّه).

إن مثل هذه المواقف مرهونة بالظرف الموضوعي والذاتي للطرفين ومدى توافقهما على المصالح المشتركة والمنافع المتبادلة وعلى درجة الإصطفاف في معسكر الأصدقاء أو معسكر الأعداء. أي على مدى تضامن الأمة الأكبر مع الأمة الأصغر في نبذ الإستعلاء والهيمنة مقابل نبذ الأمة الأصغر للتعصب والانغلاق، سواء حين يتقرر الإتحاد الإختياري الأخوي في ظل شراكة متكافئة، ومواطنة كاملة ومتساوية أو حين يتقرر الإنفصال، علماً بأنه ليس كل انفصال يقضي إلى تطور ورفاه وتنمية، إلا إذا توفرت ظروفه الموضوعية والذاتية، وتجربة جنوب السودان الذي انفصل باستفتاء حاز على 98٪ لصالحه وبإشراف من الأمم المتحدة لكن أوضاعه زادت سوءًا وحالته تدهوراً.

دروس التاريخ

إن دراسة التاريخ ضرورية، فالتاريخ مراوغ وماكر حسب هيغل، ووفقاً لماركس "ليس وعي الناس هو الذي يحدد وجودهم إنما وجودهم الاجتماعي هو الذي يحدد وعيهم" بمعنى من المعاني أن الحياة هي التي تحدد الوعي، وبالطبع فلكل تاريخ فلسفته ، وفلسفة تاريخ القمع ضد الكرد، ليست سوى الانجراف بالضد من الصيرورة الإنسانية. وهو الأمر الذي يثير أسئلة مقلقة بشأن استخدامات القوة والعنف واللجوء إلى السلاح لحل الخلافات، خصوصاً من جانب القوى المهيمنة، وإذا كانت قوة الحق وقوة المقاومة متسقة برفض من جانب الجهات التي تتعرض للقمع، ففي وجهها الثاني تضامنٌ من جانب الأصدقاء في الدفاع عن المظلومين والمضطهدين، خصوصاً وأن الشعب الكردي تعرض منذ تأسيس الدولة العراقية أي قبل 100 عام إلى إنتهاكات سافرة على حد تعبير ملا بختيار.

وكانت الكثير من القوى تتخذ من حقوقه موقفاً سلبياً أو لا مبالياً حتى فترة قريبة. وقد حاولت جميع الحكومات التي تعاقبت على سدة الحكم استخدام الوسائل العسكرية و العنفية في مواجهة مطالبه العادلة والمشروعة، لكنها لم تتمكن من فل عزيمته، كما أنه لم يستطع نيل حقوقه وتحقيق آماله بوسائل المقاومة العنفية على أهميتها وعلى اضطراره إليها، الأمر الذي يقتضي التفكير ملياً بالوسائل السلمية والمدنية أسلوباً مرجحاً وغالباً لتحقيق طموحاته، وهو ما ينطبق اليوم على علاقة إربيل ببغداد وعلى حل القضية الكردية في كل من إيران وتركيا، إضافة إلى مستقبل الإدارة الذاتية الكردية في سوريا وعلاقتها مع الدولة السورية.

الحوار الثاني

إذا كان أول حوار عربي – كردي من النوع الذي جرت الإشارة إليه انعقد في لندن في العام 1992 ، فإن الحوار الثاني التأم في القاهرة في العام 1998 بعد وقف الإقتتال الكردي - الكردي 1994 - 1998 بالتعاون مع لجنة التضامن المصرية برئاسة أحمد حمروش وشارك في التحضير له الصديق عدنان المفتي (ممثل عن أوك) وعمر بو تاني (ممثل عن حدك) ، وحضره نحو75 شخصية بينهم عدد كبير من الشخصيات الكردية وعدد قليل من عرب العراق من بينهم كاتب السطور الذي حضر بحثاً رئيسياً وعدد من الشخصيات المصرية البارزة ، وكان مؤتمر القاهرة استكمالاً وتواصلاً للحوار الأول وشارك فيه جلال الطالباني، زعيم الإتحاد الوطني الكردستاني وعدد من قيادات الحزب الديمقراطي الكردستاني وبمباركة من

رئيسه مسعود البارزاني.

لكـن هـذا الحـوار المتكافـئ والموضوعـي كان يمكن تطويـره و مأسسـته، وجرت محاولات على صعيد تشـكيل جمعيـات للصداقـة العربيـة - الكردية، فضـلاً عن دعوات لقيام معهد للدراسات العربية - الكردية، إلا أنه بعد إحتلال العراق العام 2003 اتخذ أشـكالاً أخرى ، وذلك باستقطابات جديـدة، فإما كان أقرب إلـى مهرجانات تأييد ومبايعة وولاء دون حـوار يطـرح الإشـكالات أو يقتـرح حلـولاً ومعالجات أو يناقـش وجهـات النظـر المختلفـة، حيـث ظلـت معظم المشـكلات عائمـة دون حلـول، وانعكس ذلك في دسـتور العـام 2005 ، الـذي زاد من حـدة الإختلاف بسـبب الألغام العديدة التي احتواها لدرجة أن الفرقاء الذين أقروا الصيغة الفيدراليـة حيـن كانوا فـي المعارضة وفـي مؤتمر صلاح الديـن العـام 1992 ظهـروا كمتخاصميـن، بـل أقرب إلى "الإخوة الأعداء" باقتباس من عنوان رواية الشاعر والمفكر اليونانـي نيكـوس كازانتزاكيـس، وهـو مـا انعكس في صياغات غامضة وملتبسـة ومشـفرة تكاد تنفجر عند أول منعطف أو اختلاف كما حصل عند استفتاء إقليم كردستان ، وأصبحـت مع مرور الأيام عقـداً تضاف إلى العقد المزمنة والمشاكل المعتقة.

الاستفتاء

كان الإسـتفتاء الكـردي فـي 25 أيلول/ سـبتمبر العام 2017 مجساً جديداً للعلاقات العربية – الكردية، وكاد الأمر أن يـؤدي إلى صـدام لا يحمد عقباه علـى الرغم من خطر داعـش الإرهابـي (تنظيم الدولة الإسـلامية) الذي كان ما يـزال يحتل الموصـل وأجزاء أخـرى مـن محافظات صلاح الديـن والأنبـار وله جيوب في كركوك وديالى . وانقسـمت النخـب وسـط تأجـج للمشـاعر واسـتدرار للعواطف بين مؤيد بـلا حدود للإسـتفتاء، حتى وإن لم يكـن مؤيداً لحق تقرير المصير للشـعب الكردي، ولكن لمكاسـب وامتيازات وطموحات ومساومات سياسية وخصومات معلنة أو مستترة وفقاً لميزان القوى، وبعضها الآخر رافض بالمطلق للفكرة أساسـاً منقلباً حتى على بعض مواقفه السـابقة من تأييد حقوق الشـعب الكردي، سواء لحسـابات إقليمية أو لقصور في التفكير وضيق أفق ومحاولات للإستقواء.

ولـم يكن بعض هذه المواقـف بعيداً عن دول الإقليم، وخصوصـاً إيـران وتركيـا، وكلاهما وجها رسـائل واضحة وصريحـة مـن جهة، ومن تحـت الطاولة من جهـة أخرى ، بأن الإسـتفتاء لن يمر وسـيعملان بكل ما يستطيعان على إفشـاله، لإدراكهمـا ما سـيكون لـه من تأثيـر على حقوق الشـعب الكردي لديهما، فالبلدان يعانيان بأشـكال مختلفة من إنسـداد أفق إزاء حقوق الشـعب الكردي في كل منهما ، فتركيـا تلتهـب فيهـا القضية الكرديـة منـذ الثمانينيات وينشـط فيها حزب العمال الكردستاني PKK حيث ما يزال زعيمه عبد اللّه أوجلان رهن السجن منذ العام 1999 ، وهو صاحـب فكرة "الأمة الديمقراطيـة "التي تكمن في إطارها تحقيق حقوق الشـعب الكردي بالإعتراف به وبخصوصيته وحقه في حكم نفسـه بنفسـه. أما إيران فمـا تزال تعتبر "القومية" بدعة وضلالة، وكل بدعة في النار، وبالتالي فأي مطالبـة بالحقوق القومية تنظـر إليها بصفتها اسـتهدافاً للجمهورية الإسلامية.

وإذا كان الإسـتفتاء قد حصل في إطار إقليم كردستان، وصوت إلـى صالحه الغالبية السـاحقة من سـكانها، إلا أن نتائجـه ظلت مقتصـرة على الرغبـة المعلنـة، وهي خيار اسـتراتيجي كـردي مـع معارضـة قـوى داخليـة وإقليمية وتحفظـات دولية. وكان وزراء خارجية كل من إيران وتركيا وسوريا يلتقون منذ مطلع التسعينيات ولغاية وقوع العراق تحت الإحتلال العام 2003 ، وفي كل اجتماع ، تتم الإشـارة إلى حالة الفلتان الأمنـي والفوضى والمخاطر على الوحدة الوطنية العراقية، وليس ذلك سـوى التعبير عن خشية من انتقـال مثل تلك الحالـة إليها، وخصوصاً مـا يتعلق بقيام كيانية كردية.

اللحظة التاريخية

إذا كنا قد تحدثنا عن المؤيدين والمنددين لخيار الإستفتاء، فثمـة فريق ثالث وإن كان الأقل عدداً ولكنه الأكثر وجدانية وصميميـة بتأييـده حقوق الشـعب الكـردي كاملـة وغير منقوصة، بما فيها حقه في تقرير المصير، ولكن قرار مثل ذلـك القرار المصيري لابد من دراسـته بدقـة وإحكام، بما فيه قياس درجة تقبل الوضع الإقليمي والدولي، إضافة إلى حشـد قوى صديقـة ومجتمعية في الداخـل العراقي، كيما تتوفر له عوامل النجاح والإستمرارية والديمومة، خصوصاً وأنه سـيقود إلى إحداث تغيـرات جيوبوليتكية في الحال أو في المستقبل، الأمر الذي يقتضي حساب اللحظة التاريخية فـي الإختيار والتوقيت اسـتراتيجياً وتكتيكياً، بما لها علاقة

بمستقبل الشعب الكردي وطموحاته المشروعة،إضافة إلى علاقته المستقبلية بالشعب العربي وظروف توازن القوى في المنطقة كي لا يكون عرضة لإختراق القوى الإقليمية، خصوصاً ما يتردد عن تأييد مجاني يشكل إستفزازاً لمشاعر عربية من جانب "إسرائيل" مستغلة ومستفيدة من اضعاف أي كيانية عربية من خلال تأجيج نار الصراع والإحتراب وصولاً إلى تفتيتها أو تقسيمها.

وحتى بعض القوى الدولية التي كان يعتقد تأييدها لخطوة الإستفتاء، فإن موقفها كان سلبياً ومتحفظاً، بما فيها الولايات المتحدة الأمريكية، التي كان بعض المسؤولين الكرد يعولون عليها، لأنها وضعت مصالحها الحيوية في العراق والمنطقة، قبل أي اعتبار آخر.

وعلى الرغم من استراتيجية واشنطن المعلنة والتي بلورها على نحو واضح برنارد لويس منذ نهاية السبعينيات، إلا أن إختيار اللحظة التاريخية مسألة ينبغي أن تؤخذ بنظر الإعتبار بقراءة المستجدات والمصالح الدولية، إذْ لا تكون أحياناً متوافقة أو متطابقة مع متغيرات محلية ولكل ذلك سياقاته الجيوبوليتكية في الصراع والإتفاق وبما ينسجم مع المصالح الحيوية كما تسميها القوى المتنفذة.

لقد نظر برنارد لويس لفكرة تقسيم العالم العربي إلى دويلات إثنية ودينية وطائفية ومناطقية وغيرها، حتى أنه اقترح خريطة ضمت 41 كياناً، وهكذا يصبح الجميع "أقلية "، وتكون حينها "إسرائيل" الأقلية المتفوقة تكنولوجياً وعلمياً، لاسيما بدعم من الولايات المتحدة الأمريكية بشكل خاص والغرب عموماً، وكان إيغال ألون في سياساته الإستيطانية الطويلة الأمد وصولاً إلى إجتياح لبنان ومحاصرة العاصمة "بيروت" 1982 قد تبنى سياسة القضم التدرجي للأراضي الفلسطينية وتفتيت العالم العربي، وهو مشروع قائم ومستمر بأشكال مختلفة، وكان آخرها وليس أخيرها مشروع الشرق الأوسط الكبير الذي روج له جورج بوش الإبن عند احتلال العراق، ومشروع الشرق الأوسط الجديد الذي بشرت به كونداليزا رايس وزيرة خارجية الولايات المتحدة بعد العدوان "الإسرائيلي" على جنوب لبنان في العام 2006 ومشروع جو بايدن الخاص بتقسيم العراق إلى ثلاث فيدراليات أقرب إلى "كانتونات" أو "دوقيات" والذي وافق عليه الكونغرس الأمريكي العام 2007 ، وهو وإنْ ما يزال في الأدراج إلا أنه يمكن تحريكه باللحظة المناسبة فيما إذا اختارت الولايات المتحدة ذلك، وقد دعا الرئيس دونالد ترامب إلى مشروع صفقة القرن ، والذي هو استمرار لإتفاقية سايكس – بيكو ولكن بطبعة جديدة، وكان الفلسطينيون قد خسروا وطنهم في الصفقة الأولى، ولم يتمكن الكرد من تلبية طموحهم في وطن موحد كما جاء على لسان الملا بختيار في مناظرة السليمانية.

وحتى بعد إتفاقية سيفر لعام 1920، التي اعترفت بجزء من حقوق الكرد والتي تم تسويفها بمعاهدة لوزان العام 1923حين قرر الحلفاء المساومة لحساب تركيا، كان الضحية الشعب الكردي وشعوب المنطقة جميعاً، خصوصاً بعد وعد بلفور العام 1917 القاضي بمنح اليهود حق إقامة دولة لهم في فلسطين، وتمهيداً لذلك كان الإنتداب البريطاني على فلسطين في العام 1922 ، بعد أن تقرر الأمر في مؤتمر سان ريمو العام 1920.

وحين أستعرض تاريخ المنطقة، فإنما أريد الإضاءة على إشكالية إتخاذ القرار بالتساوق بين ما هو موضوعي وما هو ذاتي، دون أن يعني ذلك تخفيض سقف مبدأ حق تقرير المصير. وبالعودة إلى قرار الإستفتاء الذي أثار زوبعة من العداء والكراهية والإتهامات المنفلتة من عقالها، حيث عادت لغة التخوين والتشكيك، ووجد البعض ضالته بإذكاء نار الصراع، فأحيا من جديد ما توفر في القاموس القديم بما فيه استخدامات الأنظمة السابقة ومعارضاتها، ولعبت القوى الأكثر تطرفاً في الضرب على الأوتار الحساسة لدى الجانبين العربي والكردي. فماذا يتطلب الأمر من المثقفين المؤمنين بقيم الحرية والتحرر وحق تقرير المصير؟

الأمير الحسن وحوار عمان

كمثقفين يهمنا إقامة علاقات سوية ومتكافئة ومتساوية وسلمية، خصوصاً بما يجمعنا من قيم مشتركة أساسها نبذ التمييز ورفض الظلم والإستبداد والإضطهاد والدفاع عن الحقوق والحريات وصولاً إلى سلام عادل يلبي طموح الكرد في إطار المصالح الوطنية العليا والقيم الإنسانية، ولكي يتم توسيع دائرة الحوار ونزع فتيل النزاع بادر سمو الأمير الحسن بن طلال بقناعة بالدعوة الخيرة لرأب الصدع وإعادة اللحمة، خصوصاً بين المثقفين الكرد والعرب، فدعا في عمان إلى حوار عربي – كردي في 1 آذار/ مارس 2018 ، ساهم فيه مثقفون كرد وعرب من الأقطار العربية المختلفة، وبينهم بالطبع من العراق أيضاً.

وطرح لقاء عمان بلاتفورم للعمل عليه فيما يتعلق بتعزيز

الروابط الثقافية والفنية والأدبية وتشجيع الترجمة وتبادل الزيارات وإقامة فاعليات وأنشطة مشتركة على جميع المستويات الفنية والرياضية والإجتماعية، يكون سقفها الإحترام المتبادل ومراعاة الخصوصية والهويات المتعددة بما يجمعها من مشتركات عامة. وصدر في كراس بعنوان " الحوار العربي - الكردي" - خلاصة أعمال ندوة عقدها منتدى الفكر العربي في 1 آذار/ مارس 2018.

وقد أجريت جولة الحوار العربي - الكردي، الفكري والثقافي بشفافية عالية واعتمدت كأساس لإقامة جولة ثانية موسعة للحوار وفقاً للبلاتفورم الذي وضعه منتدى الفكر العربي، ولولا اجتياح المنطقة والعالم أجمع جائحة كورونا (كوفيد19-) لكان من المقرر التواصل لتحديد موعد للجولة الثانية.

حوار أعمدة الأمة الأربعة

واستناداً إلى نجاح فكرة الحوار العربي - الكردي، بادر سمو الأمير الحسن لتبني مقترح تنظيم جولة لحوار مثقفي الأمم الأربعة: الكرد والفرس والترك والعرب في 23 تموز/ يوليو 2018 ، وكان أول لقاء لوضع هذا المقترح موضع التنفيذ قد حصل في تونس في إطار المعهد العربي للديمقراطية 2016 بمبادرة من كاتب السطور ، وشارك فيه شخصيات كردية وفارسية "إيرانية" وتركية وعربية، وتأسس وفقاً له لاحقاً منتدى التكامل الإقليمي في بيروت 2019، إلا أن جائحة كورونا وظروف التباعد حالت دون تنشيط دوره، علماً بأنه عقد لقاءً تشاورياً في تونس أيضاً في مطلع العام 2020.

وبالعودة إلى مبادرة سمو الأمير الحسن فقد انعقد "مؤتمر أعمدة الأمة الأربعة" بحضور شخصيات من تركيا وإيران وكردستان (العراق) والبلاد العربية. وتجري الإستعدادات لعقد لقاء جديد يستكمل اللقاءين السابقين، العربي - الكردي و"أعمدة الأمة الأربعة"، وقد انعقد لقاء تشاوري للجنة مصغرة ضمت ممثلين عن مثقفين من الأمم المشار إليها .

السليمانية : التواصل والتكامل

تواصلاً مع مؤتمرات الحوار العربي - الكردي منذ 30 عاماً، فإن المناظرة الفكرية التي انعقدت في السليمانية 3-5 أيلول/سبتمبر 2021، والتي تحدث فيها ملا بختيار وكاتب السطور، أعادت طرح الإشكالية التي هي العنوان العام لجميع الحوارات: ماذا يريد الكرد من العرب وماذا يريد العرب من الكرد؟ وكيف السبيل لتعزيز دور المثقفين للتفاعل والتواصل في إطار المشترك الإنساني؟

ومن خلال المداخلات وعلى هامشها أيضاً تم التفكير في سبل جديدة لبحث و تطوير ما هو مشترك وصولاً إلى ما هو خلافي، أو العكس البدء مما هو خلافي لتنقية الأجواء وصولاً إلى ما هو مشترك، وذلك بالعمل على إزالة العقبات التي تعترض طريق المثقفين والثقافة التي هي المظلة التي يستظلون تحت لوائها، كما يمكن تحديد الأولويات بدءًا بالمواطنة وفكرة الإتحاد الإختياري والعيش المشترك، من خلال مناقشة التجارب العملية، سواء ما هو قائم منها أو ما هو محتمل إبتداءً من الحكم الذاتي ومروراً بالفيدرالية وصولاً إلى الكونفيدرالية، مثلما يمكن مناقشة حق تقرير المصير في تجلياته الحقوقية والسياسية، بجوانبها النظرية والعملية بما فيه تشكيل كيانية خاصة بالكرد فيما إذا رغبوا بالإستقلال وتكوين دولة حين يصبح العيش المشترك مستحيلاً.

"الضد" والا "مع"

الأمر لا يتعلق بالرغبات (ضد أو مع)، بل بتوازن القوى والمصالح وإمكانية الإستمرار في كيانية كردية خاصة دون تداخلات أجنبية، وخصوصاً إقليمية، ناهيك عن ضغوط دولية، فما هو دور المثقف الكردي النقدي التنويري التبصيري؟ وأين يكمن جوهر ثقافته؟ وكيف السبيل للتواصل مع شقيقه المثقف العربي في العراق والعالم العربي، ناهيك عن المثقف الإيراني والمثقف التركي ؟ والأسئلة ذاتها هي التي تواجه المثقف العربي في العراق، فما هو دوره؟ وكيف ينظر إلى مطالب شقيقه المثقف الكردي؟ وماذا يريد منه؟

ففي بعض المواقف ثمة اختبار لصدقية وإنسانية وثقافة المثقف، إذْ كيف يمكن تطويع وسيلته الإبداعية لخدمة القيم الإنسانية والجمالية؟ ثم ما السبيل لتواصله مع شقيقه المثقف الكردي في كردستان العراق أو في بقية أجزاء كردستان؟ ويتطلب الأمر النظر بحيوية وتكافؤ دون إستعلاء أو تسيد أو ادعاء بالأكثرية العددية من جانب المثقف العربي ودون تعصب أو انغلاق من جانب المثقف

الكردي.

الراهن مستمر

مثل هذه الأسئلة الراهنة، كانت "راهنة" دائماً وعلى قدر كبير من الحساسية في وقت تمت الدعوة لأول حوار عربي – كردي في العام 1991 خارج الأطر الرسمية حين التأم في العام 1992 ، ويتذكر الأحياء من الذين حضروا المؤتمر الأول للحوار وهم كثر من العرب والكرد كيف سارت وجهة الحوار في بداياتها؟ وكيف انتهت إليه في خاتمتها وهو ما يعزز الثقة بالحوار وأهميته وأفقه المستقبلي؟
وهو ما يمكن الإجتماع عنده كمثقفين وأصدقاء معنيين بشؤون الثقافة وبالدور المنشود للمثقف، خصوصاً حين يكونون على قناعة بأهمية العلاقات العربية – الكردية ليس ببعدها السياسي فحسب، بل بأبعادها الجيوسياسية والثقافية والإجتماعية والصداقية والإنسانية.
وبما أن المثقف ناقدٌ فمن خلال النقد والنقد الذاتي والمراجعات الضرورية يمكن التوصل إلى مشتركات لتجسير الفجوة بين المثقفين أولاً، وإزالة بعض الحساسيات والعوائق خارج دوائر الإستتباع والهيمنة أو الإنعزالية والإنغلاق، وهو ما ينبغي البناء عليه في إطار علاقات حميمية وصادقة، فلا الولاء أوالمديح أوتأييد السياسات بما لها وما عليها، ولا العداء أوالتجريح أو الشوفينية ، تستطيع بناء علاقات صادقة وصافية ومحترمة وواعدة في الآن، تلك التي تعني توسيع خيارات الناس في التنمية والتقدم والإزدهار.
لقد كانت مناظرة السليمانية علامة مضيئة على طريق الحوار العربي – الكردي، خصوصاً وأنها من السليمانية وكردستان، لذلك فإنها ستكون خطوة إيجابية وموفقة لتعضيد المبادرات العربية على هذا الصعيد، وبالتالي يمكن أن تكون نواة لحوار قادم بين مثقفي الأمم الأربعة الذي هو الآخر يحتاج إلى مأسسة وإدارة وتواصل في الحقول المختلفة.

حوار 50 عاماً أفضل من ساعة حرب

أعتقد إن السبيل لبلوغ الأهداف المشتركة هو الحوار، وكما قيل حوار 50 عاماً أفضل من حرب ساعة، فالحرب ستترك ويلات ومآسي وآثار إجتماعية ونفسية وجروح يصعب إندمالها أحياناً وذاكرة قد تتجه إلى الكراهية والحقد والإنتقام، فما بالك حين يكون ضحيتها الشعب الأعزل والجهات التي دفعت إليها دفعاً، حتى وإن كانت خارج دائرة الصراع.
والحوار يتطلب جهداً أكبر يجمع مثقفين من تيارات فكرية واجتماعية مختلفة، ليكونوا قوة ضغط وقوة إقتراح وقوة شريكة ومكملة في وضع الحلول والمقترحات، من خلال رؤية حقوقية - إنسانية، انطلاقاً من المشتركات والمصالح والمنافع المتبادلة.
أعتقد أننا كنخب عربية وكردية بحاجة إلى حوارات معمقة وتفاهمات استراتيجية واتفاقات طويلة المدى وثقة متبادلة وصراحة كاملة وشفافية عالية ونقد متبادل ونقد ذاتي أيضاً، لندفع بجهد السياسيين لعلاقات منزهة خالية من الأغراض والتكسب والمصالح الأنانية الضيقة، والتفاهمات التكتيكية الطارئة والظرفية والصفقات، والتي سرعان ما تتبخر وتظهر عيوبها، وذلك بعيداً عن أجواء الغرف المظلمة أو المهرجانات الصاخبة ذات الطابع الدعائي والتي غالباً ما تأخذ جانب المجاملة والإحتفالية.
وكنت لأكثر من مرة قد أشرت إلى ضرورة مراجعة وتدقيق ما يحتاجه الطرفان العربي والكردي وكلاهما مستهدفٌ من قوى خارجية وأخرى داخلية لا تريد لهذا الملف أن يصل إلى غاياته المنشودة ، وكان آخرها في المنتدى الأكاديمي الدولي بالتعاون بين جامعتي كويسنجق وبغداد 28 - 29 نيسان/ أبريل 2019 وفي بحث عن "المثقف ومسألة التعايش المشترك" حاولت أن أضع أمام المعنيين عدداً من القضايا التي تحتاج منا إلى وقفة جدية لمراجعتها ومنها:
• المحاولات الحثيثة لعزل الكرد عن المحيط العربي وإضعاف ما هو مشترك وإيجابي في العلاقات وتقديم ما هو إشكالي و خلافي، حيث يجري تضخيم "الفوارق" بدلاً من تعظيم "الجوامع". وفي هذا المجال هناك تفاصيل عديدة، تتعلق باللغة والثقافة والترجمة والفنون والأداب والعلاقات بشكل عام.
• تحميل العرب والعروبة وزر ما حدث للكرد من اضطهاد وعسف شوفيني. وبنظرة تعميمية تتحول ارتكابات النظام السابق وآثامه والأنظمة التي سبقته وكأنها ارتكابات من جانب العرب والعروبة، ومثل هذه النظرة تنطلق من رد الفعل بعيداً عن العقلانية النقدية الإيجابية، ناهيك عن الواقع.
أما من جانب العرب فيتم:

• اتهام الكـرد بالانفصالية والعداء للعرب لمطالبتهم بحق تقريـر المصير ودعوتهـم لإقامة كيانية خاصة مسـتقلة بهـم (دولـة) ، وتحميلهـم مسـؤولية ما حدث ومـا يحدث بعد الاحتـلال. ومثلما ينبغـي التمييز بيـن عروبة الحكام المسـتبدين وعروبة العرب، فإن ضيـق أفق بعض النخب السياسية الكردية الانعزالية لا ينبغي أن يتحمله المثقفون الكرد، ناهيك عن الشعب الكردي.

• عـدم اكتـراث بعـض عـرب العـراق وقسـم كبيـر من القوى السياسـية، فضـلاً عن المثقفين العـرب من بلدان عربية أخرى بمسـألة كرد إيران وكرد تركيا وكرد سـوريا وحقوقهـم المشـروعة، وكأن الأمـر لا يعنيهـم، في حين أنهم يطالبـون الكرد باتخـاذ مواقف تضامنيـة مع العرب في كل مكان، وخصوصاً فلسطين، إلا أنهم يقفون موقفاً سلبياً إزاء حقوق الكرد.

• عـدم اكتـراث بعض كـرد العـراق أو غيرهم مـن الكرد بحساسـية العلاقة مع "إسرائيل" المنتهكة لحقوق الشعب العربي الفلسطيني، ولاسيما حقه في تقرير المصير.

• وعلـى الطرفيـن العربـي والكـردي عدم تقديـم ما هو طارئ ومؤقت وآني من قضايا شائكة ومعقدة، على حساب ما هو استراتيجي وثابت وبعيد المدى. والأمر يشمل النخب السياسـية بالدرجة الأساسـية، والنخب الفكرية والثقافية والحقوقية أيضاً وإن بدرجة أدنى.

وعلى الطرفين العربي والكردي تبديد المخاوف والشكوك إزاء بعضهمـا البعـض، إذْ لا بـد للمثقفيـن العـرب تبديد مخـاوف الكـرد وذلك من خـلال تعزيـز وتوطيـد العلاقة والتفاهم والمشترك الإنساني، والاعتراف بحقوقهم وفي مقدمتهـا حقهم في تقرير المصير بـكل ما يتضمنه هذا الحـق وما يعنيه من مضاميـن، لا باعتبارها منة أو هبة أو هدية، بقدر كونها إقراراً بواقع أليم وانسـجاماً مع النفس فـي الإنتصار للمظلوم والشـريك في الوطـن، فضلاً عن مبادئ المسـاواة والعدالة والشـراكة والمواطنة المتكافئة التي هي الأسـاس الذي ينبغي أن يقـوم عليه بناء الدولة ، مثلمـا ينبغـي أن تقـوم عليـه العلاقـات بين الشـركاء. فالكـرد أمة مثل بقية الأمم لهـا الحق في تقرير مصيرها وتحقيق الوحدة الكردية الكيانية، مثلما العرب أمة قسمها المسـتعمرون أيضـاً ولها الحق في إقامـة الوحدة العربية. وهو مـا ينبغـي أن يؤطـر قانونياً وفي سـياق دسـتوري متسق.

كمـا لا بـد للمثقفين الكرد تبديـد مخاوف العـرب بتأكيد اعتبارهـم جزءًا مـن العراق في إطار حـق تقرير المصير الـذي اختاروه عبـر النظام الفيدرالي، علماً بأن لا سـعادة للعرب من دون الكرد، ولا سعادة للكرد من دون العرب في العراق، لأن مصيرهما مشترك وذلك قدر الجغرافيا، سواء أكان نقمة أم نعمة.

ولعل جميع هذه القضايا سـتظل مطروحـة للنقاش، وقد جـاء بعض هـذه القضايا في مناظرة المفكـر الكردي ملا بختيار مع كاتب السـطور عبر فيهـا الطرفان برحابة صدر وموضوعية وشفافية عالية.

عوضاً عن الخاتمة

وفي الختام أود أن أشـير إلى ما سـبق وأن قلته منذ عقود من الزمن، وهو أن "أغلبيات" كثيرة اجتمعت في شـخصي المتواضـع، وذلك بمحـض الصدفة، وهـي أغلبيات دينية وقوميـة وحسـب البعـض مذهبيـة، وأزعم أنهـا أغلبيات شـعبية، وخصوصاً دفاعي عن الفقراء والكادحين وعموم المظلوميـن، ولكـن عروبتـي التـي أعتـز بهـا وانتمائي الصميمـي للحضـارة العربيـة - الإسـلامية ودفاعـي عن المسـحوقين سـتكون ناقصـة ومبتورة ومشـوهة إن لم أعتـرف بحقوق الآخرين وفـي مقدمتهم الشـعب الكردي الشقيق، ولاسيما حقه في تقرير مصيره.

وكنـت كتبت رسـالة خاصـة للزعيمين الكرديين مسـعود البارزاني و جلال الطالباني عشية غزو العراق واحتلاله في العام 2003 محذراً من المخاطر الجمة، وأكرر اليوم ما جاء فيهمـا فحتى لو تخلى هذا الطرف الكردي أو ذاك لأسـباب سياسـية أو تكتيكية عن حق تقرير المصير، فسوف أبقى مدافعاً عن حق الشعب الكردي في تقرير مصيره وخياراته الحـرة لإيماني المبدئـي، الفكري والحقوقـي بذلك، ولأن ذلك حق قانوني وإنسـاني أيضاً، سواء بالإتحاد الإختياري الأخوي أو إقامة دولة مسـتقلة صديقة للعرب، وأقول ذلك دون لبس أو غموض وبثقة وشـفافية كمثقف يؤمن بقيم التحرر والحرية والسلام والتسامح وحق تقرير المصير.

تدريس اللغات وتعلمها: أي أفق لتدبير التعدد اللغوي في المدرسة المغربية؟

عبدالحق لبيض رئيس المركز المغربي لحوار الثقافات وتنمية القيم

شـكل موضوع تدريس اللغـات والتدريس بها موضوع جدل وتدافع في العديـد من المنظومات التربوية العالمية،ونتجت عنها جملة من الدراسات والأبحاث التي تعددت اتجاهاتها ومذاهبها وتوجهاتها ــوحققت مجموعة من النتائج التي فتحت أفق النقاش اللغوي على مشارب عدة ومسارات متنوعة.

ولـم تبتعد المنظومة التربوية المغربية عن هذا النقاش التربوي والسياسـي،حيث خضع الوضع اللغوي في المدرسـة المغربية ،لجدل قوي ،وطرحت مسـألة الأولويات اللغوية في المدرسة المغربية من ناحية الأبعاد والدلالات والغايات والأهداف المعلنة أو الخفية. ولفهم وإدراك طبيعة هذا الجدل لا بد من الوقوف على مسـار تشـكله عبر تمرحلاته التاريخية وتشـكلاته في عمق الذهنية المغربية،منطلقين من طرح الإسـئلة التاليـة: أي تدبير لمختلف الجوانب المتعلقة بعملية تدريس اللغـات وتعلمها بمكوناتها العربية والأمازيغية والأجنبية في إطار مشـهد ثقافي وطني متسـم بالتنوع اللغوي؟وما هي مسـوغات الاختيار اللغـوي للمدرسـة المغربية أمام ما يشـبه فوضى النقـاش والجدل في أولويات الاختيـارات بين الدوافع الفكريـة والهوياتية والعلميـة والدوافع المصلحية المرتبطـة بمواقع القرار الاقتصـادي التابعة لمراكز الضغط الدولية، وعلى رأسـها الدوائر الفرنكفونية المتجذرة تاريخيا في المشهد السياسي والاقتصادي والثقافـي المغربي؟ وهل نسـتطيع اليـوم الحديث عن اختيار لغوي أمام غياب شـبه تام لمقومات ثوْرةٍ ثقافيـة يسـتعيد من خلالها المغرب دولـة ومجتمعا زمام اسـتقلال القرار الوطني ؟ وهل قـرار التدْبير اللغوي قرار بيداغوجي وتربوي خالص أم أنه قرار سياسـي وسـياديٌ مرتبـطٌ بمقومات الأمة وعناوين شخصيتها الحضارية؟

أسئلة عديدة توجه وتحدد مقاربتنا لسؤال اللغة في المنظومة التربوية المغربية .

وسـنحاول بدْءاً تأطير قضية اللغة ضمن مسارها التاريخي لفهم خلفيات ما يجري اليوم من نقاش حادٍ حول المسـألة اللغوية وصل إلى حد التراشـق بالتهم والتهم المضادة ،وأثار العديد من اللغط السياسـي والشعبي والثقافي.

المسألة اللغوية في المدرسة المغربية نحو تشكيل رؤية تاريخية:

لايمكـن النظر إلـى التعـدد اللغوي في المدرسـة المغربية ،اليوم، بدْعـةً أبدعتها اللحظة التاريخية الراهنة ،بقدر ما هو واقع تشـكلت ملامحه الأولى منـذ حتى مـا قبـل الحمايـة الفرنسـية للمغرب. فإضافـة إلى الوضعية المتسـمة بالتنـوع والتعدد اللغويين : لهجـاتٍ أمازيغيةٍ ولهجات عربية دارجة وحسـانية ،كانت الفرنسـيةُ هـي اللغـة الأجنبية الرئيسـية فـي هـذه الفترة.ففي سـنة 1885 ثم إحداث أول مدرسة فرنسية عربية في طنجة .وفي سـنة 1908 تزايـد عدد المـدارس الفرنسـية إلى جانـب إحداث مـدارس إسـبانية وإنجليزية. وهكذا ،ففي سنة 1908 كان 4136 تلميذا مغربيا يتلقون تعليما باللغة الفرنسية.

وبعـد الحمايـة الفرنسـية ،لوحـظ أول إجهـاض لانفتـاح المغرب على تعدد لغوي متسـم بنوع من المساوتية والنفعية والمصلحية التي تخدم مصالح الأمة وتسـتجيب لحاجياتها الأساسـية.فقد فرضت الفرنسـية كلغة رسمية في جميع الإدارات وهيئات

> **لايمكن النظر إلى التعدد اللغوي في المدرسة المغربية ،اليوم، بدْعةً أبدعتها اللحظة التاريخية الراهنة ،بقدر ما هو واقع تشكلت ملامحه الأولى منذ حتى ما قبل الحماية الفرنسية للمغرب.**

الحمايـة ،في حين تم تقليـص حجم حضور اللغة العربية كلغـة قومية موحدة لأهـل المغرب، حيث أصبحت تقتصر على الأنشـطة التقليدية. فما قام به ليوطي في هذا المنحى ما يزال التاريخ شـاهدا عليه ،حيث سعى، عبر قراره الشهير سنة 1927 إلى جعل المدرسـة مشـتلا لتدجين الأهالي وفصلهم عن مقومات شـخصيتهم التاريخية والثقافية..ولم تكـن العربيةوهي لغة ثقافـة المغاربة وهويتهم تلقـن إلا ابتداء مـن التعليم الثانـوي كلغة أجنبية متساوية في المكانة مع اللغة الإنجليزية.

استطاعت،في هذه الفترة، الحركة الوطنية اعتماد

آليات لتدبير وصون الثقافة العربية الإسلامية من خلال تجديد الكتاتيب القرآنية ،وإنشاء مدارس حرة ، وتحسين العدة الديداكتيكية لتدريس اللغة العربية.وقد أسفرت هذه المبادرة الوطنية عن تراجع نسبة المغاربة المسجلين في المدارس الأوروبية إبان الاستقلال :12 بالمائة من مجموع التلاميذ المسجلين في نظام التعليم العمومي.

من الطبيعي أن ينصب الاهتمام بالمدرسة المغربية وبإصلاحها وتحديثها بعيد الاستقلال على ركيزة اللغة أساسا باعتبارها مفتاح الإصلاح الحقيقي ..فقد تم الإعلان سنة 1975 من طرف اللجنة الملكية لإصلاح التعليم عن أربعة مبادئ باعتبارها رافعة لأي إصلاح تربوي حقيقي وفعال، وهي :التوحيد ،والتعميم،والمغربة ،والتعريب. وهذه المبادئ الأربعة ظلت الموجه لأية مبادرة أورؤية إصلاحية فيما بعد.وفي إطار التعريب تم اعتماد مدخلين أساسين : تمكين اللغة العربية من مكانتها كلغة وطنية رسمية ،وجعل التعريب اختيارا سياسيا رسميا واستراتيجيا.ففي مناظرة إيفران سنة 1970، تم وضع مخطط عشري للتعريب ،غير أنه لم يتجاوز السلك الابتدائي.. وهكذا ،وحتى وزارة عز الدين العراقي حيث سيتم توسيع التعريب ليشمل السلكين الإعدادي والثانوي بما فيها المواد العلمية. وتجدر الإشارة هنا إلى أن بعض المناهضين للتعريب يتحججون بكون التعريب كان فوقيا وفرض على المغاربة فرضا متعسفا ،غير أن استعراض الوقائع التاريخية وقوة النقاش والجدال الدائرين في تلك الفترة ،ومشاركة كافة الأطياف والحساسيات الفكرية والسياسية فيه يجعل منه اختيارا قوميا استراتيجيا كان يهدف بالأساس إلى إعادة الاعتبار إلى الشخصية المغربية وربطها بسياقها الحضاري والثقافي العربي.لكن المثير في هذا السياق أنه للمرة الثانية تتدخل القوى الفرنكفونية لتعطيل مشروع التعريب وإجهاضه وذلك من خلال ما يلي:

- إيقاف مسلسل التعريب في مستوى الثانوي وعدم تمكينه من تغطية السلك الجامعي. وقد بات اليوم معروفا حقائق السياسية التجريفية التي تمارسها الإدارة الفرنسية من خلال استدراج الطلبة المغاربة ،وخاصة المتفوقين منهم إلى استكمال دراستهم بالمعاهد والجامعات والمدارس الفرنسية والعمل في القطاعات الحيوية في فرنسا والاستفادة من خبراتهم وإمكانياتهم الإبداعية ،مما يعرض الدولة المغربية إلى عملية استنزاف لعقولها المبدعة والفاعلة والمنتجة.
- عدم تمكين اللغة العربية من التهيْئة اللغوية

القادرة على تحْيينها من أجل القدرة على مواكبة المستجدات العالمية ،وبخاصة في الجالات العلمية والتقنية.

شكل الميثاق الوطني للتربية والتكوين محطة أساسية في مسلسل إصلاح المنظومة التربوية بالمغرب(1999)، حيث شدد على مركزية اللغة العربية كلغة رسمية، ودعا في الدعامة التاسعة إلى "اعتبار اللغة العربية ،بمقتضى دستور المملكة المغربية اللغة الرسمية للبلاد،"حيث إن تعزيزها واستعمالها في مختلف مجالات العلم والحياة كان ولا يزال وسيبقى طموحا وطنيا". كما دعا في المادة 111 من الدعامة التاسعة إلى " تجديد تعليم اللغة العربية وتقويته ..".وستأتي الرؤية الاستراتيجية 2030-2015 لتدعم هذا التوجه وتؤكد عليه في الرافعة الثالثة من خلال " تقوية وضعها وتنميتها ،وتحديثها وتبسيطها ،وتحسين تدريسها وتعلمها ،وتجديد المقاربات والطرائق البيداغوجية ذات الصلة بها". وتشير الرافعة كذلك إلى أن " اللغة العربية لغة التدريس الأساس ،ويتم تفعيل مبدأ التناوب اللغوي بالتدرج على أساس تدريس بعض المضامين أو المجْزوءات باللغة الفرنسية في التعليم الثانوي التأهيلي على المدى القريب والإنجليزية في التعليم الإعدادي على المدى المتوسط وفي التعليم الثانوي التأهيلي على المدى المتوسط.

والملاحظ أن العرض اللغوي التنويعي الذي قدمته الرؤية الاستراتيجية قام على استحضار الجانب الكمي في تعليم اللغات على حساب قدرات المتعلم ،وبخاصة في مستوى الإبتدائي، على تحمل هذا الارهاق اللغوي.حيث تم التنصيص على إلزامية اللغة العربية وإلزامية اللغة الأمازيغية وإلزامية اللغة الفرنسية في مستويات هذا السلك كافة ،بوصفها لغة مدرسة،ثم إدراج اللغة الإنجليزية في السنة الرابعة"...

هذه الهندسة اللغوية هي التي سيعتمدها مشروع قانون الإطار 17-51 ،حيث عرف مفهوم التناوب اللغوي مرة في المادة 2 بالقول :" مقاربة بيداغوجية وخيار تربوي يستثمر في التعليم المزدوج أو المتعدد اللغات ،بهدف تنويع لغات التدريس ،وذلك بتعلم بعض المضامين أو المجزوءات في بعض المواد باللغات الأجنبية ،قصد تحسين التحصيل الدراسي فيها"، ليأتي فيحرف هذا التعريف في المادة 31 بالقول " إعمال مبدإ التناوب اللغوي من خلال تدريس بعض المواد ولا سيما العلمية والتقنية منها أو بعض المضامين أو المجزوءات في بعض المواد بلغة أو بلغات أجنبية". نحن إزاء ارتباك واضح في تعريف مفهوم من المفروض أن يتسم بالدقة والاختزال والعلمية. فمرة يعني تدريس بعض المضامين أو المجزوءات بلغة أو بلغات أجنبية ،ومرة يعني تدريس مواد أو بعض المضامين أو المجزوءات بلغة أو لغات أجنبية.

اللغات والتمدرس من وهم التعددية اللغوية إلى البعد الوظيفي للغات.

إن أكبر وهم يطلعنا به مشروع القانون الإطار هو وهم التعددية اللغوية وإشكالية تدبيرها في المنظومة التربوية المغربية .تعْرف التعددية اللغوية في دراسات علم الاجتماع اللغوي بتعدد الألسن داخل جماعة بشرية محددة وهو ما يعكس تنوعا عرقيا أو عقديا أو مناطقيا نتج عن مجموعة من عوامل التفاعل التاريخي والحضاري.

إن التعدد اللغوي ينبع من حركية المجتمعات، و من الدينامية التاريخية للجماعات البشرية داخل فضاء جغرافي معين لفترات تاريخية طويلة وممتدة. وهكذا ، فإن التنوع اللساني الأصيل للمغاربة يتشكل من اللسان العربي الفصيح ومن اللهجات العربية المتعددة جهويا، واللغات الأمازيغية والحسانية .أما اللغات الحية الأخرى كالفرنسية والإنجليزية والإسبانية، وغيرها ، فهي لغات أجنبية تخضع في مدى حضورها أو خفوتها داخل مجتمع ما إلى عوامل تاريخية وسياسية محددة ،والتعامل معها يكون بمقتضى قرار سياسي ليس إلا. ولنا في تجارب دولية عديدة في العالم استطاعت أن تستغني عن لغة أجنبية وتعويضها بلغة أخرى بجرة قلم : ماليزيا، على سبيل المثال، التي اتخذت قرارا سياسيا جريئا لتوقيف تجربة التدريس باللغة

الإنجليزيــة وتعويضها باللغة القوميــة "المالوية" وفْــق مبــدأ التدبيــر العقلانــي ومنطــق الأفضلية اللغوية للجماعــة البشــرية ذات الأولويات الخاصة بها.أضف إليها تحول كل من ســوريا ولبنان ،وهما مستعمرتان فرنسيتان، من اعتماد اللغة الفرنسية إلــى اللغــة الإنجليزيــة . وتاريخيــا، تحــول مصــر مــن اعتماد اللغة الفرنســية كلغة نخبــة إلى اللغة الانجليزية ...

لقــد أثبتث العديد من الدراســات والأبحاث اللغوية واللســانية الاجتماعيــة والنفســية أهميــة تمكــن الطفل من لغته الأم في الســنوات الأولى نظرا لأن العامل اللغوي أهم مقوم مشــكل لهوية الإنســان والأمــة ،ولعل ذلــك هو ًما حــدا بًواضعــي "ميثاق التنــوع الثقافــي"، فــي منظمــة اليونســكو، إلــى التأكيد على أن اللغة ليست أداة للاتصال واكتساب المعرفــة فحســب ،بــل إنهــا أيضا مظهر أساســي للهوية الثقافية ووســيلة لتعزيزها ،سواء بالنسبة للفــرد أو للجماعة. وقد نصــت المنظمة، في إحدى توصياتهــا التربويــة، على ضــرورة التــزام الدول بتدْريــس أبنائها اللغة القومية، أواللغة الأم ، أكبر قدر من الســنوات حتى يستقيم لســانهم وتتشبع شخصيتهم بمكونات الحمولة الثقافية والحضارية للغة ،مما يخلق لديهم التوازن ويؤثر على مستوى تحصيلهم الدراســي وقدرتهــم الإبداعية.إن اللغة ،كما يقول بيير بورديو (1990)" ليست مجرد ناقلة للثقافــة المادية والقيمية فقــط ،بل هي جزء من

ماهية هذه الثقافة ،ذلك أن اللغة ليست القناة التي تمر من خلالها قيم وثقافة وحضارة المجتمعات ،بل هي أساس كل ذلك ،وغياب اللغة عن كل ذلك يفقدها مكانتها ،وحتى حضورها التقافي والتاريخي".

أما فيما يخص لغة التعليم ودورها في تطوير القدرات المعرفية للتلاميذ ،فقد أبانت العديد من الأبحاث العلمية مدى أهمية التلقين باللغة الأم أو اللغة الوطنية خلال السنوات الأولى من التمدرس الابتدائي.كما أبانت هذه الدراسات على أن تعليم اللغات الأجنبية يجب ألا يتم على حساب اللغات الأم للتلاميذ وتطوير القرائية في هذه اللغات .وقد أظهرت دراسة ميدانية قام بها فريق بحث شمل العديد من المتخصصين والتربويين خلصت إلى أن "ضعف التلاميذ المغاربة على مستوى القدرات القرائية يعود ذلك،في نظرنا ، إلى العبء الذي يحس به الطفل في عملية تلقين اللغات".وتبرز الدراسات (كولدنبرغ 2008) أن تعليم التلاميذ القراءة في لغتهم الأم ،يسهل مستويين عاليين من المردودية في القراءة في اللغات الأخرى ، لأنهم يتوفرون على أسس لسنية أكثر متانة بحيث تشكل فكرهم اللغوي وتنمي قدراتهم ،خاصة وأن تمة علاقة بين اللغة والفكر. فالأطفال بحاجة، من أجل تطوير قدراتهم الإدراكية، إلى لغة ينتظم فكرهم في إطارها. وتكفي الإشارة هنا إلى المحاولة التي قامت بها الحكومة البريطانية سنة 1964 حيث مولت مشروعا لتدريس اللغة الفرنسية في المرحلة الابتدائية من 8 سنوات إلى 13 سنة لمدة عشر سنوات في 35٪من مدارس إنجلترا، وبعد أن قامت المؤسسة الوطنية للبحوث التربوية بقياس اتجاهات التلاميذ وأدائهم تبين أنه لا توجد فوارق ذات دلالات إحصائية بين آداء التلاميذ الذين درسوا الفرنسية من سن الثامنة والتلاميذ الذين بدأوا بدراسة الفرنسية في المرحلة الثانوية، لذلك أوصت الدراسة بعدم جدوى توسيع المشروع واستمراره،وبذلك أسدل الستار على تعليم اللغة الأجنبية في المرحلة الابتدائية.

يعيش المغرب، على غرار دول نامية أخرى، معْضلة على مستوى التخطيط اللغوي؛إذ ما يزال محكوما بالتبعية الاقتصادية والسياسية والثقافية لدوائر المركز..وهذه التبعية هي التي توجه تخطيطاته التنموية والاقتصادية ،وهي تخطيطات ترْهن حاضره ومستقبله للمجهول. أما فيما يتعلق بالتخطيط اللغوي فإن تمة خللا بنيويا يبْرز في الميل الواضح لصالح اللغة الفرنسية في المؤسسات التعليمية غير العمومية ،والاتجاه المتنامي نحو تقويتها في التعليم العمومي ، مما يعكس قوة العلاقة المغربية الفرنسية في المجالات الاقتصادية والسياسية والثقافية،لكن من شأن هذه العلاقة أن تؤثر في الأمد المتوسط على مستقبل الموقع الاستراتيجي للمغرب على الأمد المتوسط والبعيد...

إن الاختيار اللغوي المناسب، اليوم، للتطلعات التنموية المغربية لابد أن ينصب حول إعادة بناء الشخصية المغربية على أسس الهوية والثقافة المغربيتين ،واستحضار الأبعاد والاتجاهات التي تميل نحوها ؛فاللغة من المقومات الجوهرية لهوية الفرد والجماعات وعنصر أساسي في خلق كيان مجتمعي منسجم ومتفاعل ومتناغم ،كما تمثل اللغة العامل الاستراتيجي للتقدم نحو التنمية المستدامة وللربط السلس بين القضايا العالمية والقضايا المحلية انطلاقا من المقولة الشهيرة "يجب التفكير عالميا والعمل والتدبر محليا".هذه القاعدة الأساسية لأية تنمية حقيقية تتطلب استحضار البعد اللغوي على قاعدة المصلحة الوطنية وحماية سيادة اللسان الوطني ومقومات الهوية الوطنية المغربية.

نص الورقة التي شاركنا بها في أشغال المؤتمر السادس للغة العربية المنظم من طرف الائتلاف الوطني من أجل اللغة العربية .

أعلام التجديد الشعري في العراق وتونس خلال العهد الملكي (1920-1958)

شادي زريبي
كاتب وصحفي تونسي

عرف الشابي بمناهضته للاستعمار، وجاهر بذلك في العديد من قصائده التي تلونت واصطبغت باللون الأحمر، لون الدم المراق على أرض تونس، فجاء شعره فاضحا لأفعال المستعمر الماعن في الترويع والتجويع والتهجير

لقد مر الشعر العربي في تاريخه بالعديد من المنعرجات والهزات والتغيرات حسب الزمان والمكان، وحسب المتغيرات الاجتماعية والسياسية وحتى الاقتصادية، هذه العوامل شكلت مجتمعة أشكالا جديدة للقصيدة العربية مع مضامين خرجت عن السائد والمألوف، والتي تناولها النقاد القدامى بالبحث والتمحيص.

والحقيقة أن الواقع الذي عاشته البلدان العربية مع مطلع القرن العشرين، وحتى قبل ذلك التاريخ، جعلت العديد من المفاهيم تنحو نحو التبدل بحكم واقع الاستعمار الغربي الذي عاشته والذي ساهم بقسط كبير في تفشي العديد من المظاهر القاسية، كالفقر والمرض والجوع والآفات وغيرها من العلامات القاتمة، هذه المظاهر ساهمت في ظهور أصوات شعرية نادت بضرورة التغيير ورفض هذا الواقع المفروض بقوة السلاح ومنطق الترهيب والتركيع.

وفي هذه الورقة سنحاول تسليط الضوء على الشعر الثوري بداية من العشرينات من القرن الماضي في المشرق العربي، العراق نموذجا، ومثله في المغرب العربي، تونس مثالا لذلك، وإلى حدود نيل استقلال كل من البلدين (تونس سنة 1956 والعراق سنة 1958).

الطاهر الحداد

معروف الرصافي

بدر شاكر السياب

ابو القاسم الشابي

نازك الملايكة

عبد العزيز الثعالبي

الميداني بن صالح

زبيدة بشير

ولعل الأحداث التي مرت بها المنطقة العربية في العشرية الثانية من القرن الماضي، أي بداية العشرينات كان لها الوقع الكبير في نفوس الشعراء الذين هبوا لنصرة القضايا العربية وكشف حقيقة المحتل، سلاحهم في ذلك وقع الكلمة وسلطة القول، وتأثير القصيدة في نفوس الشعوب، فبرزت القصيدة الثورية التي سنت معانيها لاستنهاض همم الشعوب، فجاءت المعاني صاخبة بروح التمرد وانثالت الكلمات برداء الثورة والرفض، هذه القصائد كانت في تلك الفترة عنوانا للثورة والبداية الفعلية لخط سير المناداة بالتحرر من نير الاستعمار، يقول الشاعر التونسي أبو القاسم الشابي (1909-1934) في ديوانه "أغاني الحياة":

"ألا أيها الظالم المستبد حبيب الظلام عدو الحياه
سخرت بأناة شعب ضعيف وكفك مخضوبة من دماه".

هذه الصرخة النابعة من نفس ثائرة، وهذا النفس القوي الصادر من ذات هادرة، وهذه العبارة الملخصة لفعل المستعمر، ما هي إلا صورة حقيقية عما كان يعانيه التونسي إبان فترة الاستعمار، من قتل وتجويع واضطهاد وتشريد.

كما عرف الشابي بمناهضته للاستعمار، وجاهر بذلك في العديد من قصائده التي تلونت واصطبغت باللون الأحمر، لون الدم المراق على أرض تونس، فجاء شعره فاضحا لأفعال المستعمر الماعن في الترويع والتجويع والتهجير، هذه الأفعال حذر الشابي الطغاة من الثورة الآتية، والتي ستنبع يوما من إرادة الحياة التي ستنتصر على فعل الموت المبثوث هنا وهناك، يقول في قصيدته "إرادة الحياة":

"إذا الشعب يوما أراد الحياة فلابد أن يستجيب القدر
ولابد لليل أن ينجلي ولابد للقيد أن ينكسر".

ونجد أن الشاعر العربي الحديث مجبول على السياسة، لأنه مدفوع إليها بدافع غريزي، فهو لم ير حوله غير النكسات المتعاقبة منذ نهايات القرن التاسع عشر، وتوغل الاستعمار، وبزوغ كيانات سياسية اتسمت بالاستبداد وغياب الحرية، ومصادرة حق المواطنين في التعبير عن آرائهم، فكان الشعر صرخة من أجل حرية التعبير والمناداة بالديمقراطية، والنضال ضد الأنظمة الفاسدة، وتحقيق شروط الوجود الإنساني. وهذا ما يفسر لنا الدوافع النفسية التي جعلت من الشعراء يخوضون تجربة مغامرة الشعر السياسي، بالرغم من معرفتهم المطلقة بأن نشاطهم الشعري الهجائي

لن يعود عليهم سوى بالسجن والنفي والمطاردة والتشريد والتصفية.

وفي هذا السياق صور الشعر العراقي في بداية القرن العشرين العذاب الذي يلاقيه الشعب جراء الاستعمار البريطاني الذي أوغل في أعمال الوحشية والعنف، يقول محمد مهدي الجواهري (1899-1997)، الملقب بشاعر العرب الأكبر في مجاهرة الطغاة وبنبرة المتحدي:

"قبل أن تبكي النبوع المضاعا
سب من جر هذه الأوضاعا
سب من شاء أن تموت وأمثا
لك هما وأن تروحوا ضباعا
سب من شاء أن تعيش فلول
حيث أهل البلاد تقضي جياعا
خبروني بأن عيشه قومي
لا تساوي حذاءك اللماعا".

ولأن الشعر كان، ولا يزال، ملجأ الفرد من بطش السلطة، وأداة لكسر القيود التي تفرضها عليه، نشأ الشعر السياسي الذي يعرف بأنه أحد أشكال الشعر الذي يهدف من خلاله الشاعر إلى التعبير عن رأيه السياسي فيما يجري حوله من أحداث من خلال رؤيته الخاصة التي تكشف حقيقة الواقع السياسي وتجلياته.

نشأ الشعر السياسي نتيجة سوء الأحوال الاجتماعية، وتدهور الأوضاع السياسية، وضراوة الأنظمة الحاكمة التي لا تعبأ بالفرد وهمومه وآلامه وآماله، "فحين تفسد السياسة يظهر الشعر"، في إشارة إلى العلاقة المشوبة بالتنافر والعداوة بين السياسة والشعر.

وفي هذا المسار أدركت الشاعرة نازك الملائكة (1923-2007) أن الحل الوحيد لتحرير الوطن السليب يكمن في الثورة، والتمرد، ورفع راية المقاومة عاليا، دون خوف أو وجل من المصير القادم، تقول في قصيدتها ذائعة الصيت "كوليرا":

" سكن الليل
أصغ إلى وقْع صدى الأناتْ
في عمْق الظلمة تحت الصمت على الأمواتْ
صرخاتٌ تعلو تضطرب
حزنٌ يتدفق، يلتهب
يتعثر فيه صدى الآهاتْ
في كل فؤادٍ غليان
في الكوخ الساكن أحزان
في كل مكانٍ روحٌ تصرخ في الظلماتْ
في كل مكانٍ يبكي صوتْ
هذا ما قد مزقه الموتْ
الموت الموت الموتْ
يا حزْن النيل الصارخ مما فعل الموتْ
طلع الفجر ".

كما لفت المفكر والنقابي والسياسي التونسي الطاهر الحداد (1899-1935) الانتباه بعدد مهم من القصائد ذات النفس الإصلاحي أمضى أكثرها باسم مستعار "ضمير".

كان شعر الحداد، بمثابة الشرارة الأولى التي اندلعت مغربا فأضاءت السماء، وشجعت مفكريه على إعلان معركة السفور، والمطالبة بإصلاح وضعية المرأة لإدماجها في الفضاء العام، بعد أن حجبت عنه لعدة قرون وقد فضح أعمال المستعمر ونادى إلى ضرورة المقاومة الفعلية ورفض الاستسلام والخنوع، يقول في قصيدته "إذا ما أردنا أن ننال الرغائبا":

"إذا ما أردنا أن ننال الرغائبا
فليس لنا غير العلوم مطالبا
بها بدد الغرب الضلال وجيشه
وقاد بها نحو الحياة النجائبا
بها ذلل الغرب السماء لعزمه
وعمر أرجاء البحار مراكبا".

وتميز شعر الحداد وكتاباته، بالوعي التاريخي العميق وإدراكه لتطور الحياة ولالصيرورة التاريخية، وقد ناقش خصومه انطلاقا من هذه الفكرة، يقول في قصيدته "أفديك يا وطني بالنفس والمال":

"أفديك يا وطني بالنفس والمال
مما يسومك سوءاً فيه إذلالي

أفديك يا وطني أفديك يا سكني
بك اعتزازي وفيك اليوم آمالي
حبي إليك أراني الخطب منقبة
تزيدني شرفاً يزري بعذالي
لا عيش لي أبتغي إن لم يعش وطني
في عزة ورخاء هانئ البال
إني بخدمة أوطاني أذب على
قومي وأهلي ومجدي الشامخ العالي".

فالحداد انتقد في معظم قصائده الانقياد للماضي لأنه كان مدركا للآلية التي تدفع الشعوب العربية للهروب من الحاضر نحو الماضي وأمجاده.

ولعل شعره كان رسالة واضحة لأولئك الذين اختاروا الرضوخ والاستكانة، فكانت عباراته كالرصاص قوة وكالسيوف حدة لاستنهاض الهمم، يقول في قصيدته "يا قومي استمعوا للنصح يبذله":

"يا قومي استمعوا للنصح يبذله
أخ لكم همه الإخلاص للوطن
إن شئتم أن تنالوا الفوز فاتحدوا
فنحن بين نيوب الجور والوهن
ضعف نقاسيه من أمراض كبوتنا
حكم يسير بنا للهول والمحن
يا ويح قوم أضاعوا منهم شرفاً
بناه أجدادهم في سالف الزمن
يستقبلون رزايا الدهر مفعمة
سحقاً ومحقاً وعارا غير مضطعن
فذاك واللّه لا ظلماً جزاؤهم
قد أعقبته إليهم لذة الوسن".

ولعل الأشعار المبثوثة هنا وهناك في نص كتاب "تونس الشهيدة" لعبد العزيز الثعالبي (1874-1944) عملت على إحداث المفارقة بين المبادئ والسياسات، بين فرنسا الداخل وفرنسا الخارج، بين فرنسا التاريخ والثورة وفرنسا الحاضر والاستعمار، مؤكدا أن جل ما تقوم به حكومات الحماية، بداية من المقيم العام إلى أبسط موظف فرنسي، إنما شديد التناقض مع المبادئ الحداثية للعالم الحر.

وكثف الثعالبي، في كتابه، من معجمية سياسية وقانونية قل وجودها في المدونة الفكرية لتلك الحقبة على غرار الإنسانية العامة، والأخوة العالمية، والعدل والإنصاف، وهي مصطلحات مقتبسة من المعجم الحداثي أكثر منه من المعجم المحلي في فترة ما بين الحربين.

وأخذ الشاعر العراقي بدر شاكر السياب (1926-1964)، موقع الريادة بفضل تدفقه الشعري وتمكنه من جميع الأغراض، وكذلك للنفس الأسطوري الذي أدخله على الشعر العربي بإيقاظ أساطير بابل واليونان القديمة، كما صنع رموزا خاصة بشعره مثل المطر، تموز، عشتار، وقريته "جيكور" التي خلدها في شعره.

> **لعل شعر الطاهر الحداد كان رسالة واضحة لأولئك الذين اختاروا الرضوخ والاستكانة، فكانت عباراته كالرصاص قوة وكالسيوف حدة لاستنهاض الهمم**

وجاءت الألوان في شعر السياب متعددة، حيث بدأ بالرومانسية وانتقل سريعا إلى الواقعية من خلال بعض مشاكل المجتمع العراقي والعربي كالفقر واضطهاد الإنسان والشعوب، مثل قصيدة "حفار القبور"، التي يقول فيها:

"ضوء الأصيل يغيم كالحلم الكئيب على القبور
واه كما ابتسم اليتامى أو كما بهتت شموع
في غيهب الذكرى يهوم ظلهن على دموع
والمدرج النائي تهب عليه أسراب الطيور
كالعاصفات السود كالأشباح في بيت قديم
برزت لترعب ساكنيه
من غرفة ظلماء فيه
وتثاءب الطلل البعيد يحدق الليل البهيم
من بابه الأعمى ومن شباكه الخرب البليد

والجو يملؤه النعيب
فتردد الصحراء في يأس واعوال رتيب
أصداءه المتلاشيات
والريح تذروهن في سأم على التل البعيد
وكأن بعض الساحرات
مدت أصابعها العجاف الشاحنات إلى السماء
تومي إلى سرب من الغربان تلويه الرياح
أخـط فـي وحـل الرصيـف وقـد تلطخ وقـد تلطخ بالدماء".

إلى أن يصل إلى حالة القتل والتشريد التي يعيشها العراق إبان الاحتلال الذي لم يرحم أحدا، يقول:

"وسأدفن الطفل الرمي وأطرح الأم الحزينة
بين الصخور على ثراه
ولسوف أغرز بين ثدييها أصابعي اللعينة
ويكاد يحنقها لهاثي وهي تسمع في لظاه
قلبي ووسوسة النقود نقودها واخجلتاه
أنا لست أحقر من سواي وإن قسوت فلي شفيع".

والحقيقة أن الشاعر مزج شعره بثقافته الإنجليزية متأثرا بالشـاعر إليوت في قصيدته الشهيرة "أزهار وأسـاطير" لتظهـر محاولاتـه الأولـى في الشـكل الجديد للشعر العربي.

وفي بداية الخمسـينيات كرس الشاعر العراقي كل شعره لهذا النمط الجديد واتخذ المطولات الشعرية وسـيلة للكتابة، وفيها تلتقي القضايـا الاجتماعية بالشعر الذاتي.

وعن أبرز الأعمال الشعرية التي تركها السياب رغم رحيله المبكر، مجموعـة دواوين منها: أزهار ذابلة، أسـاطير، حفار القبور، المومس العمياء، الأسـلحة والأطفـال. يقـول في قصيدته الأشـهر "أنشـودة المطر":

"مطر مطر مطر..
وفي العراق جوع..
ما مر عام والعراق ليس فيه جوع..
وتنثر الغلال فيه موسم الحصاد..
لتشبع الغربان والجراد".

ويرى العديد من النقاد أنه تجربة فريدة من اندماج الشاعر بشـكل سـاحر مع التجربة الحياتية، ورغم أن بعض مواضيع أشـعاره تبدو محليـة، لكنه كان ينطلـق بها إلى ما هو عالمي، نتيجة ثقافته العالية وحساسـيته الشـخصية التـي يتأثـر بهـا، منفعلا ومحولا ذلك إلى فن شعري مميز.

وتعددت مقاصد السـياب الشـعرية، حيث خرج عن بداياتـه في الكتابة عـن الحب وأصبح يـرى الواقع العراقـي بوضـوح مـن خـلال مـا كان يجـري في بـلاد الرافديـن عندما ضيقت دائـرة الحرية، وصار المواطن ملاحقا من قبل الاسـتعمار والموالين له، يقول في قصيدته "المومس العمياء".

"الليل يطبق مرة أخرى، فتشربه المدينهْ
والعابرون، إلى القرارة مثل أغنيةٍ حزينهْ
وتفتحت، كأزاهر الدفلى، مصابيح الطريق
كعيون "ميدوزا"، تحجر كل قلب بالضغينهْ
وكأنها نذرٌ تبشر أهل "بابل" بالحريق

•••

من أي غاب جاء هذا الليل؟ من أي الكهوف
من أي وجر للذئاب؟
من أي عش في المقابر دف أسفع كالغراب؟
"قابيل" أخف دم الجريمة بالأزاهر والشفوف
وبما تشاء من العطور أو ابتسامات النساء
ومن المتاجر والمقاهي وهي تنبض بالضياء!
عمياء كالخفاش في وضح النهار، هي المدينهْ
والليل زاد لها عماها
والعابرون
الأضلع المتقوسات على المخاوف والظنون
والأعين التعبى تفتش عن خيالٍ في سواها
وتعد آنية تلألأ في حوانيت الخمّور
موتى تخاف من النشور
قالوا: سنهرب، ثم لاذوا بالقبور من القبور!".

ثم انتقل السـياب إلى الأسـطورة، واستثمرها من خلال تمرير رسائل سياسـية واجتماعية وإنسانية، لكنـه دفع ثمنها كثيرا فلوحـق وفصل من وظيفته بسبب مواقفه السياسية.

بعـض الأدباء لا تقل سـيرتهم أهمية أو جمالا عن أدبهـم، وهكـذا كان الشـاعر العراقـي عبدالوهاب البياتـي (1926- 1999) والـذي وقـف مـن خـلال

شعره الإنساني ضد الاستغلال والتمييز العرقي والطائفي، حيث كان محبا للبسطاء، مخلصا للفقراء، ومؤمنا بأن الشاعر لا وطن له حيث إن وطنه العالم كله، حيث يقول:

"حبي أكبر مني،
من هذا العالم
فالعشاق الفقراء
نصبوني ملكا للرؤيا
وإماما للغربة والمنفى".

إن البياتي الذي غلب عليه طابع الترحال والهجرة القسرية، ينطبق عليه قول التوحيدي إنه أغرب الغرباء، فقد كان يتحدث دائما بوجع المنفى والمنافي، وجرح الغاضب وتفاؤل الثائر.

عاش متنقلا بين أقطار الدنيا وعواصمها من بغداد إلى القاهرة مرورا بمدريد وموسكو إلى بيروت ومحطته الأخيرة دمشق، أو ما يسميه "المنفى الكامل".

ولعل غزارة إنتاجه الشعري إبان فترة الاحتلال البريطاني للعراق حيث أصدر البياتي العديد من المجموعات الشعرية، وهي تباعا ملائكة وشياطين (1950) وعيون الكلاب الميتة وأباريق مهشمة (1954) وقصائد (1965) والمجد للأطفال والزيتون (1956) والكتابة على الطين وأشعار في المنفى (1957). هذه الأعمال تترجم شعور البياتي بما يكابده أبناء جلدته من معاناة وقهر وظلم جعلت من المواطن العراقي مجرد عبد تحت سلطة الاستعمار الذي أوغل في الاستغلال والتجويع غايته تركيع الهمم التي رفضها وقاومها بشدة.

واصطدم البياتي بحقائق الواقع بعد أن كان رومانسيا حالما، فاستولى على نفسه السأم وبدأ يبحث عن قوالب جديدة. واتخذ الشعر الحر أسلوبا جديدا للتعبير عن قسوة الحياة وعما يعتلج في صدره من أشجان، وهو من رواد هذا الاتجاه في الشعر العربي الحديث.

وفي هذا السياق ظهرت قصائد ديوان "أباريق مهشمة" سنة 1950، حيث لاقت صدى ترحيبيا واسعا لدى نقاد الموجة الحداثية آنذاك. واعتبره بعضهم منعطفا شعريا، وولادة جديدة، وربما لأسباب سياسية أكثر منها فنية، وقد كتبت "أباريق مهشمة" في جو أقرب إلى السجن أو المنفى، حيث كان معلما في مدرسة بمدينة الرمادي على أطراف الصحراء والتي كان ينفى إليها السياسيون.

ويصف البياتي تلك الفترة بقوله: "هناك عانيت نفس محنة هؤلاء وعشت مناخهم، وقد أطلق عليها الكاتب العراقي غائب طعمة فرمان (المنفى الكبير أو السجن الكبير):

"سأكون! لا جدوى، سأبقى دائما من لا مكان
لا وجه لا تاريخ لي، من لا مكان
الضوء يصدمني وضوضاء المدينة من بعيد
نفس الحياة، يعيد رصف طريقها سأم جديد
أقوى من الموت العنيد
وأسير لا ألوي على شيء، وآلاف السنين
لا شيء ينتظر المسافر غير حاضره الحزين".

ويصف الكاتب المصري مجاهد عبدالمنعم مجاهد -في مقال له في مجلة الثقافة الوطنية التي تصدر من بيروت- حيث ورد فيها "البياتي أحد الأبطال الذين صنعهم التاريخ ولو لم يولد لكان على التاريخ أن ينجب بياتيا" ويتابع: "كان على التاريخ أن يوجد شاعرا يصور لنا ليل بغداد الكئيب ويصور بيوتها منفوخة البطون".

ويعد الشاعر العراقي معروف الرصافي (-1845 1945)، من أشهر الشعراء الذين عرفوا بمواقفه الثورية، ووصفه الكثير من الباحثين بأنه ذو حس عروبي، وله مآثر في ذلك؛ في شعره ومواقفه السياسية، يقول:

"متى تطلق الأيام حرية الفكر
فينشط فيها العقل من عقله الأسر
ويصدع كل بالحقيقة ناطقاً
ويترك ما لم يدر منها لمن يدري
أرانا إذا رمنا بيان حقيقة
عزينا معاذ اللّه فيها للكفر
جهلنا أشد الجهل آخر عمرنا
كما قد جهلنا قبله أول العمر".

لقد شارك الرصافي في قضايا أمته السياسية

والاجتماعية، ودعا إلى بناء المدارس ونشر العلم، والتي ينبغي لطالب العلم ألا يكون طلبه للعلم لذاته بل لغايات اجتماعية وذلك من خلال ربطه بالعمل فهل وفي اللفظ بهذا المعنى؟ لذلك يقول:

"ابنوا المدارس واستقصوا بها الأملا
حتى نطاول في بنيانها زحلا
جودوا عليها بما درت مكاسبكم
وقابلوا باحتقار كل من بخلا
لا تجعلوا العلم فيها كل غايتكم
بل علموا النشء علما ينتج العملا
ربوا البنين مع التعليم تربية
يمسي بها ناطق الدنيا به المثلا
فجيشوا جيش علم من شبيبتنا
عرمرما تضرب الدنيا به المثلا
إنا لمن أمة في عهد نهضتنا
بالعلم والسيف قبلا أنشات دولا".

عندما احتل الإنجليز العراق سنة 1920، سرعان ما نصبوا فيصل ملكاً على البلاد وأصدروا دستورا وأنشئوا برلمانا مزيفين وأصبحت أمور البلاد بأيديهم ثار الشعب العراقي وثار الرصافي معهم حيث أنشد قصيدته التي جاء فيها:

"علم ودستور ومجلس أمة
كل عن المعنى الصحيح محرف
أسماء ليس لنا سوى ألفاظها
أما معانيها فليست تعرف
من يقرأ الدستور يعلم أنه
وفقا لصك الانتداب مصنف".

والحقيقة أن للرصافي مشاهد كثيرة في الحكم والأوصاف والأقاصيص الحزينة التي تظهر بؤس وفقر الأمة ومقاومتها للاستبداد وظلم الأجنبي، بالإضافة إلى آرائه في السياسة وانتقاد السلطة، فهو يدعو إلى الثورة الاجتماعية والسياسية ليعم الرخاء ولتنعم البلاد بالحرية والمساواة.

يقول في يوم الفلوجة ومقاومتها للاستعمار ووقوف هذه المدينة الصامدة في وجه البنادق والدبابات سنة 1941:

"أيها المحتل لن نتناسى
بغيكم في مساكن الفلوجة
ذاك بغي لن يفيد انتقاماً
وهو مغرٍ بالساكنين علوجه
يوم عاثت ذئاب آثورٍ فيها
عيثةً تحمل الشنار سميجه
فاستهانت بالمسلمين سفاها
واتخذتم من اليهود وليجه".

وتعد الشاعرة التونسية زبيدة بشير (1938-2006)، والتي لم تزاول تعليمها في مدرسة أو كلية بل كانت عصامية التكوين وقد حرص والدها عند صغر سنها على تعليمها القرآن الكريم. تلقت توجيهات شعرية من الشاعر مصطفى خريف. تقول في قصيدة في بدايات ميولاتها الشعرية وعمرها لم يتجاوز 13 سنة، واصفة حالة المجتمع التونسي آنذاك في فترة الاستعمار، ونلمس فيها نفس الرفض والثورة على الواقع:

"عيروني نكرات الجهلوالحمق
بحزني وشجوني
فاتركوني لا أنا منكم
ولا فيكم خليق حنيني
لي ديني غير أديان
الورى في ثورتي أوفي سكوني
دينكم حقد وبغض
وأنا الإخلاص ديني".

وزبيدة بشير هي أول امرأة تونسية تتمكن من نشر ديوان شعري سنة 1968 تحت عنوان "حنين". ويعد الشاعر الميداني بن صالح (1929-2006)، والذي تخرج في جامعة بغداد من الذين اعتنقوا مفهوما للشعر مبسطا قوامه الوضوح لغاية الإبلاغ. فهجر، طبقا لذلك، عمود الشعر وغريب اللفظ والمعقد من المجاز، مفضلا عليها قصيدة التفعيلة واللفظ الشائع والصور اليسيرة الفهم وتفرغ بكليته لمعالجة قضايا الكادحين ونقل همومهم وتطلعاتهم وتصوير نضالهم اليومي من أجل تحقيق الازدهار للوطن والتغني بالقيم

الاشتراكية كالتعاضد والتعاون والروح الغيرية والتضحية.
كما أنه يعد من العلامات الفارقة في مسيرة الشعر التونسي الحديث إذ أنه أسس بشعره للنص الملتزم بقضايا العمال والفلاحين انسجاما مع قناعاته الفكرية والأيديولوجية. والميداني بن صالح إضافة إلى ما ذكر كان رائدا أيضا في نضاله من أجل تأسيس المنظمات والجمعيات المدافعة عن الحقوق والحريات، يقول:

"لقد جعنا، وما جاعوا كما جعتم...!
لقد جعنا وما شبعوا
وغنينا فما طربوا
وأنهكنا، فما تعبوا
وناديا، فما سمعوا
قد احتجوا.. فما اقتربوا....
ولا ذهبوا.. ولا عن دربنا انسحبوا
وتعرف.. كم رجوناهم ...؟
فأبلى الدهر مسراهم...".

ويقول في إحدى أشهر قصائده "قرط أمي" والتي وصفت مظاهر الفقر والجوع الذي يعيشها التونسي زمن الاستعمار على لسان أمه:

"ورنتْ لي، ودموع العين تجري
خذه يابني،
إنه ذخري الأخير
لك، يا كنزي الكبير
إن هذا القرط من كد يميني
إنه نور عيوني، وتجاعيد جبيني
كنت أخفيه على عين الزمان
من زمان رغم أسراب الجراد
رغم ناب الجوع، يغتال السواد،
واحة الخصب رماد!
ومغانيها حداد".

كرست الحقبة الإحيائية، أو ما سمي بعصر النهضة في العراق أسماء شعرية كان لها دورها الوطني الفاعل في نشر الوعي النضالي ضد سياسة القمع، وسلب الحريات، وربط العراق بعجلة المحتل الأجنبي، وإذا كانت الصورة قد غشيتها العتمة إبان الحكم العثماني، فإنها وضحت تماماً إبان التصدي للإنجليز.
وعلى الرغم من أن جل الأسماء الشعرية كانت من بيئات دينية، إلا أنها كانت على وعيً تام بما يجري في الدهاليز المظلمة لقوى الشر التي كانت بريطانيا العظمى ممثلةً له آنذاك، فكان لابد للشعر من أن يتمترس مع الشاعر في خندق واحد.

وتبقى التجربة الشعرية التي خاضها أعلام الشعر التونسي والعراقي منذ بداية العشرينيات من القرن الماضي، وحتى نيل الاستقلال من العلامات الفارقة التي ميزت المشهد الشعري العربي، بما فيه من تطورات ومنعرجات مست الأغراض والأشكال، إلا أن صرخات الشعراء في البلدين المذكورين كانت قوية وأحدثت خلخلة في صفوف المستعمر لما تميزت به من متانة في المعنى ورصانة في القول، الأمر الذي أثر في الشعوب التي توحدت مع هؤلاء، لينطلق المسار التحريري، فكان القول متحدا مع الفعل المقاوم لتحقيق الانتصار على الأوضاع المزرية التي عاشتها المجتمعات التي عانت من الظلم والقهر، والقتل والتشريد، هذه الأعمال للمستعمر ضربت صفوف المفكرين أولا لما يمثلونه من نبراس ينير سماء الظلمات ومنارة تدل الناس إلى الطرق السليمة والأفعال القويمة، والثورة على الطغيان والتضحية في سبيل الحرية والانعتاق من العبودية، لذا عمل المستعمر على وأد هذه الأصوات إلا أنها حققت النصر في النهاية وتمتعت بلحظات التحرر ودحر الظلم والقهر والجبروت، وخرجت إلى فترة أخرى بعد نيل الاستقلال، ليتحول الشعر العربي إلى مقاصد وأغراض أخرى ارتبطت ببناء الدولة وتشجيع فعل العمل وشد الهمم لغاية التطور والرقي والرخاء، بعد عقود من الاستعمار وما عاشته الشعوب من أهوال وظلم وإقصاء وجرائم مازال العالم اليوم يتذكرها ولم يغفل التاريخ عن ذكرها.

مقولات.. فلسفية

للفيلسوف الأرجنتيني جورج ليفراقا
ترجمة: عثمان الجلاصي الشريف
كاتب تونسي

■ نهـر الحيـاة يعرف كيف يغنـي على الصخـور ويتابع مجراه.

■ من لا يجني الزهور أو الغلال لم يحسـن زراعة بذرته فلم تنبت شجرته.

■ الاتحـاد والتكامـل يتجـاوز دائمـا المجموع البسـيط للأجزاء.

■ الفن هو الحكمة تشكلت جمالا.

■ فن دون رسالة مثل ظرف ليس بداخله مكتوب.

■ الجمال هو الأشكال اللامادية الأكثر ديناميكية.

■ الفنان يسـتطيع أن يكون كبيرا رغم عيوبه الإنسانية لكن لن يكون بفضلها.

■ بقدر ما تعطي بقدر ما تجني.

■ كلما أحببنا الناس أكثر نربيهم أكثر ونقويهم.

■ الرغبة ليست سـوى حرمان وشكل ما أشكال الضعف الحب قوة وروحانيات.

■ لا وجودا لشـيء مطلـق في هذا العالم، يوجد سـوى المظاهر.

■ كل مـا هو دائم خاص بالـروح كل ما هو زائل غريب عن الروح.

■ أولئك الذين يعيشـون صحبة أفكار راقية لا يشعرون بالوحدة أبدا.

■ التواضع خاصية الأرواح المتعلقة بكل ما هو نبيل.

■ الكلمات تفرقنا والعمل يجمعنا.

■ يجب علينا معرفة البحث عن الحقيقة وكيفية العيش مع الألغاز.

■ لا تتعلقوا كثيرا بالمعلم تعلقوا بما يعلمكم.

■ كل عمـل ننجـزه بـإرادة صادقـة ونجاعة هـو عمل صوفي.

■ الصبر شكل من أشكال العقيدة.

■ المعرفة الباطنية الحقيقية تبدأ بخدمة الآخرين.

■ الإنسـان يبلـغ الحكمـة من خـلال التحكم فـي بدنه وحيويته وانفعالاته ويطبع انطلاقة كيانه الداخلي على مجمل شخصيته.

■ لا وجـود لجريمة أفضـع من قتل حلم ولا أكبر فضيلة من تحقيقه.

■ الإنسـان يختلف عن الحيوان لأنه لا يفضل القوة على الكرامة لكن عليه بمساعدة الضعيف كي ينهض.

■ ثمـة ثلاث فضائل في الروح: الجمال والحكمة والحب، على الإنسان تقديسها ومحاولة فهمها بعمق.

■ الإنسـان لا يشـيخ عندما يتجعد جلده بل عندما تذبل أحلامه وآماله.

■ التاريـخ لا تصنعـه الكلمـات بـل تصنعـه الأفعـال والإنجازات.

■ التطـور الوحيد الموجود هو جهدنـا للتحول باطنيا إذ لا مجـال للجلوس على حافة الزمن وانتظار أن يحل كل شيء لوحده.

■ الإنسـان الذي يحمل في داخلـه المثل العليا للحضارة لا يموت أبدا.

■ الإنسـان ليس جائعـا للخبز فقط... اليـوم وأكثر من أي وقـت مضـى هو جائـع للكرامة... لا يريـد أن يكون رقمـا فـي إحصائيـات ولا رقما فـي حسـابات المردود الاقتصـادي... يريد أن يكون إنسـانا بالمعنى الحقيقي للكلمـة... لا يريد فقـط أن يحب ويتألـم يريد أيضا أن يتحدى القدر ويخفق أنه يريد أن يعيش إنسانيته.

■ فـي كل واحد منـا يوجد عالم من الأحـلام والكفاءات والقدرة على تجديد العالم بأسره.

■ يـدان متعارضتـان الواحدة عكس الأخـرى ورغم هذا تنتظمان للإمسـاك بالأشياء أنه التنسيق والتنظيم فلو كانتا متجانستين كيف نتمكن من جعلهما وظيفيتين.

■ الحريـة ليسـت غايـة فـي حد ذاتهـا بل هي وسـيلة للوصول إلى شيء ما لاستغلال الآخرين وكمامة للسذج.

■ بذور الشـر تزهر في شـكل ماس، كل فعل يولد ردة فعـل لا تكونـوا عنيفين فمهمـا طال الزمن سـيتوقف العنف.

■ لا يكفـي أن نغيـر العالم بل علينا تغييـر الأفاق التي يحملها الإنسـان عن العالم، المفتاح عند الإنسـان وهو مفتاح كل شيء.

■ إنسانية دون عقيدة، دون حب، دون شعر، دون تفاهم، دون أخوة ليست إنسانية حقيقية.

■ الفلسـفة هي أبسط شـيء يدركه الإنسـان بما أنك لتكون فيلسوفا ليس ضروريا أن تعرف القراءة والكتابة.

■ التقنيـة أخذتنـا إلى سـطح القمر وعلى الفلسـفة أن تأخذنا إلى ذواتنا.

■ التطور يتغذى من الصعوبات.

■ أن تكون فيلسـوفا يعني أن تتبنى موقفا صار ما تجاه الوجود.

■ الفلسـفة تجعل منا بيداغوجيين ذلـك أنه ما من أحد يمكـن أن يكون حنفيـة دون أن يعطي ماء ولا أن يكون نارا دون إحماء.

■ الفيلسـوف الحقيقـي رجل بسـيط قادر علـى قراءة الطبيعـة وهـو الإنسـان الـذي باسـتطاعته دون كتب مواصلـة القـراءة وحتـى إن لـم تعد من حولـه طبيعة باستطاعته مواصلة الحلم.

■ يحـب ألا نخجل مـن عدم معرفة الأشـياء، الخجل هو الاستمرار في الخطأ.

■ الحقيقة لا تصدق دائما إذ لا وجود لشيء أكثر تصديقا من الكذب.

■ كل إنسـان فيلسـوف عندمـا يحـب المبـادئ الأوليـة والخواتم النهائية.

■ الحقيقة ليس صنيعة الناس، هم يكتشفونها فحسب.

■ الأعمـال الكلاسـيكية هـي الأكثـر حداثـة دائما وما نتعلمـه منها لم يتجاوزه الزمن، إنه صالح دائما ومثقف لنا ومهد للروح.

■ لتكـن علـى درجة مـن الاعتدال باسـتثناء عنـد أداء الواجب.

ملاحظة:

المرجع كتاب حل ق عاليا (منشـورات Nouvelle Acro-pole).

* الفيلسوف: جورج أ. ليفراقا فيلسوف وشاعر أرجنتيني ولد سـنة 1930 ببيونس أيـرس ودرس الطب والتاريخ والفن والفلسفة.

شذرات على غرار تأملات بليز باسكال

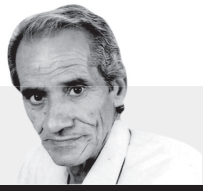

خالد التومي
كاتب تونسي

1 - أورد الأديب المرحوم سلامة موسى في كتابه مختارات رأياً للمفكر الإنجليزي مستر ويلز يقول إن أساس تقدم الشعوب هو الإتحاد لأن الإتحاد يتضمن حقيقة الإخاء الإنساني .

2 - في إحدى الضواحي الباريسية جون فيلييه رأيت شجرةً مزدانةً موشمة مكتوب عليها نص يقول " هذه شجرةٌ مجاهدة" وقد حمت فرقة من جنود الحلفاء في الحرب العالمية الثانية من هجمات الجيش النازي .
وبعد سنوات عدت إلى مسقط رأسي فمررت يوماً من أمام منزل الشهيد محمد خدومة شهيد 04/12/1954 فقرأت على باب منزله الذي بيع " خبز مطبقة "

3 - سياسيونا هذه الأيام في غالبيتهم على ثلاثة اصناف : متزلج ومتسلق ومتزحلق .

4 - اشتريت شيئاً من بائع متجول ونقدته ورقةً مالية ذات 10 دنانير وسألته صورة من هذا فلم يعرفه .

5 - قيل قديماً :شر البلية ما يضحك ليصبح ذلك الضحك هذه الأيام البلية التي تبكي.

6 - أحياناً يكون أقرب الناس منك هم أبعدهم عنك وأنت في الوهم تروح وتغدو .

7 - قال احدهم مازحاً كيف يقال أن شهر رمضان هو شهر الصيام ، الناس يستهلكون فيه أضعاف

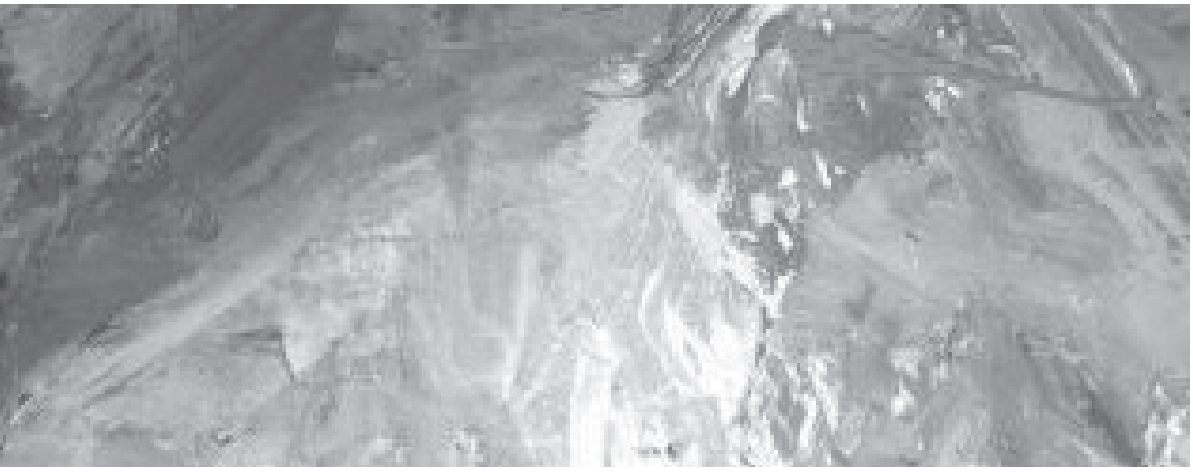

أضعاف الأشـهر الأخرى لذا ينبغي أن نسـميه شهر الإفطار .

8 - المثقف الذي لا يستطيع أن يقنع العامة بنفسه ليس مثقفاً .

9 - الخطـأ يمكنـك من إكتشـاف حقائـق لم تكن لتعرفها بواسطة الحقيقة .

10 - قلت يوماً لسياسـي سـلفي اعترض طريقي " إذا فزتم بالسـلطة فماذا ستطبقون على الشعب التونسي ،سياسة الدين أو دين السياسة فنظر إلي شجراً دون أن يجيب .

11 - قـال لي احدهـم يوماً ترددت على مشـافي العاصمة لمداواة مرض الم بي فما شـفيت وعندما علمـت أن تلـك المشـافي هـي بدورهـا مريضة قلت في نفسـي "كيف لمريض أن يـداوي مريضاً ويشـفيه " فاكتفيـت بدور شـاعر يقـول : " وربما صحت الأجسام بالعلل ."

12 - منـذ الصغر تلقيت عن المرحوم الوالد قاعدةً تتمثل فـي أن أمر مرور الكرام بأي شـيء يتهافت النـاس عليـه ويتزاحمون وهـذا الموقف مـا تغير عنـدي أبداً فلا يمكن أن ترانـي اليوم أو غداً ضمن جماعة تتزاحم لتنال شيئاً ما.

13 - في الستينيات من القرن الماضي قيل لوالي إحدى المدن "عندك أزمة سكن " فأجاب :" هذا ليس صحيحـا " أنا في كل ليلةٍ أخـرج وأطوف في البلاد طولاً وعرضاً ولم أعثر على أحد ينام في الشارع" .

14 - قال لي أحد الأصدقاء يوماً :" لا يبكيني شيء ينبغي أن يموت وانما يبكيني الشيء الذي لا ينبغي أن يمـوت ومـات "فقلت له : " أنـا لا يبكيني إلا ذاك الذي قتلناه نحن حقداً أو جهلاً أو إنتقاماً .

15 - إذا أنـت أيدت في امر ما شـخصا على حسـاب عداوته مع شـخص آخـر فعندما يتصالحـان فماذا تفعل أنت ؟

16 - قالت المرحومة جدتي يوماً لشخص أغضبها بسوء سلوكه : " عليك يا بني أن تتعلم قواعد سوء السلوك حتى لا تتصرف هكذا ".

17 - وأخيـراً لا أتصـور أن أديبـاً كبيراً فـاز بجائزة نوبل سيفرح فرحة لاعب كرة قدم سجل هدفا .

عبد السلام لصيلع

(1)

جائزة نوبل للآداب من نصيب الروائي التنزاني عبد الرزاق غرنا

• أعلنت الأكاديمية الملكية السويدية مؤخرا عن فوز الروائي التنزاني المقيم في بريطانيا عبد الرزاق غرنا بجائزة نوبل في الأدب للسنة الحالية 2021، لما قدمه من إسهامات بارزة في ميدان الأدب، على عكس التوقعات والإنتظارات.

وجاء في التقرير النهائي للجنة التحكيم أن عبد الرزاق غرنا الذي تشكل رواية " باراديس " (الجنة) أشهر رواياته وقد منح الجائزة نظرا إلى سرده "المتعاطف والذي يخلو من أي مساومة لآثار الاستعمار ومصير اللاجئين العالقين بين الثقافات والقارات".

وسيتسلم عبد الرزاق غرنا جائزته في العاصمة السويدية ستوكهولم مع بقية الفائزين في فروع نوبل ميدالية ذهبية وشهادة تقدير وتسعة ملايين كرونة سويدية أي ما يعادل 366 935 دولارا أمريكيا.

وكانت جوائز نوبل العلمية والاقتصادية والأدبية وفي العمل السلمي تأسست في عام 1901 لتتويج أصحاب الإنجازات في الأدب والعلوم والسلام عبر وصية السويدي الفريد نوبل السويدي مخترع الديناميت والذي كان من كبار الأثرياء في بلاده.

وقد منحت جوائز نوبل في ما بين عام 1901 و2019 597 مرة إلى 950 شخصا ومنظمة أغلبهم من البلدان الأوروبية وخاصة من فرنسا وأمريكا وكندا.. حيث بلغ عدد الفائزين بجائزة الأدب 117 شخصا منهم 95 شخصا من أوروبا وأمريكا الشمالية.

ولم يفز بجائزة نوبل من العالم العربي إلى حد الآن إلا أديب واحد فقط هو الأديب نجيب محفوظ من مصر ، وهنا يبرز دائما أكثر من سؤال حول سبب أو أسباب عدم منح أرقى جائزة أدبية عالمية إلى أديب عربي بعد نجيب محفوظ ، فليس من المعروف ماهي المعايير الحقيقية لمنح هذه الجائزة ولكن كثيرين في دول العالم يعتقدون أن المقاييس السياسية هي الأساسية والخفية التي تقف وراء منح الجائزة ، لأن عددا كبيرا من الأدباء والعلماء العرب يستحقون الجائزة عن جدارة ولم ينالوها.

ومن الذين فازوا في السابق بنوبل للآداب أدباء عالميون كبار نذكر من بينهم إلى جانب نجيب

محفوظ على سبيل المثال إرنست همنغواي وغابرييل غارسيا ماركيز وتوني موريسون وبابلو نيرودا وطاغور.
بقدر ما بحلم مبدعون عرب بنيل جائزة نوبل وصرحوا بذلك عدة مرات مثل أدونيس فإن كثيرين لا يهتمون بها مثل الروائي السوداني الكبير الراحل الطيب صالح الذي قال لي في أحد حواراتي معه إنه لا يفكر في نوبل ولا ينتظرها في حين أنه كان يستحقها ، وكان يطالب دائما مع غيره بأن تكون لنا نحن العرب جائزة أدبية عربية خاصة بنا وهامة ترفع شأن المبدع العربي. بالإضافة إلى الجوائز الثقافية الأخرى القليلة في عددها التي تعترف بشأن الأدباء والعلماء العرب وتحتفي بهم وبمكانتهم في مجتمعهم العربي. فمتى يا ترى تكون لنا جائزتنا العربية الكبرى؟

(2)

الشاعرة الراحلة لميعة عباس عمارة من رواد تحديث القصيدة العربية

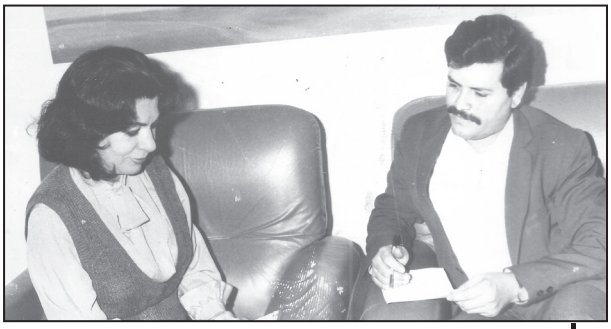

عبد السلام لصيلع مع الشاعرة لميعة عباس عمارة في تونس في شهر فبراير 1986م

• رحلت مؤخرا إلى الأبد الشاعرة العربية الكبيرة ابنة العراق لميعة عباس عمارة في الثانية والتسعين من عمرها في أمريكا مقر إقامتها بعد سفر طويل كانت تتنقل فيه بين بلدان العالم.
وهذه الشاعرة الرقيقة والأنيقة في مظهرها وكلماتها من جيل عربي رائد وضع الشعر العربي على سكة الحداثة، جمعت رموزه الدراسة في دار المعلمين العالية ببغداد في أربعينات القرن العشرين والصداقة الشعرية والأدبية والثقافية، وتمثلت هذه الرموز الإبداعية التي مازالت مضيئة بأعمالها وآثارها في لميعة عباس عمارة ونازك الملائكة وبدر شاكر السياب وعبد الوهاب البياتي وبلند الحيدري وعبد الرزاق عبد الواحد (ابن خال لميعة).
ولميعة عباس عمارة – يرحمها اللّه – من مواليد عام 1929 في بغداد كانت من أبرز الشاعرات العراقيات والعربيات، بدأت في كتابة الشعر منذ أن كان عمرها 12 سنة وكانت تبعث بقصائدها الأولى إلى صديق والدها إيليا أبو ماضي.. وعندما كانت في سن 14 سنة نشرت لها مجلة " السمير" أول قصيدة في صفحتها الأولى مع نقد وتعليق لإيليا أبو ماضي مما جاء فيه: " إن كان في العراق مثل هؤلاء الأطفال فعلى أية نهضة شعرية مقبل؟ ".. وكانت لميعة قريبة جدا من صاحب " أنشودة المطر " بدر شاكر السياب، كانت تجمعهما صداقة قوية وكتب فيها عدة قصائد وأحبها أيام شبابه كما أنها أهدته مجموعة من القصائد آخرها كتبتها في سنة 2019 بمناسبة مرور ربع قرن على وفاته.
وحسب النقاد العراقيين فإن لميعة عباس عمارة التي وهبها اللّه جمالا ملفتا للانتباه هي " جزء

من ذاكرة القصيدة الجديدة ومن هواجسها بالمغامرة والانفتاح على عوالم نزعت عنها الرتابة والمألوف الشعري، وكانت القصيدة المسكونة بالأنوثة تمثل وعيا جديدا مثلما تمثل انفتاحا كسرت معه الكثير من النمطية.. كتبت قصيدة البوح كأنها تتمرد على المسكوت عنه وكأنها تبحث عن هاجس آخر ولتجاوز عقد الهوية التي كانت تعني لها الكثير من الاغتراب والاستلاب. ولأنها كانت مجايلة لجيل متمرد مغامر تمثل في شعراء جيلها المغامر الأول أمثال السياب والبياتي ونازك الملائكة، لتجد نفسها وسط أسئلة أكثر صخبا، ووعيا أكثر انشدادا إلى مفاهيم الحرية والتمرد والبحث عن رؤى جديدة يمكن أن تتسع للإنسان الذي وجد نفسه أمام لغة جديدة وأمام رؤى وتحولات عصفت بالواقع مثلما عصفت بالقصيدة. واستطاعت لميعة عباس عمارة أن تكرس صوتها الأنثوي الخاص الذي يعد سابقة تتسم بالجرأة ووضوح الرؤية في المشهد الشعري العربي. ويقول الكاتب رياض العلي إن " لميعة تعد مؤسسة القصيدة الأنثوية العراقية، ومما يميزها هو عذوبة الإلقاء المحبب وسط إلقاء ذكوري باهت ومتشنج. وإن المشهد الشعري العراقي لم يعرف شاعرات إلا في حالتين: لميعة عباس عمارة ونازك الملائكة، وثمة فرق كبير الإثنتين ". إنها شاعرة رومانسية، جريئة في قصائدها، جميل إلقاؤها، كانت دائمة التنقل والترحال بين عواصم الدنيا.. تركت العراق نهائيا في عام 1978 لتستقر في النهاية في أمريكا إلى أن أقعدها المرض وإلى أن أدركتها الوفاة بعد حياة أدبية زاخرة تركت فيها مجموعة من الدواوين الشعرية، هي على التوالي: " الزاوية الخاوية " (1960) ، و" عودة الربيع " (1963) ، و" أغاني عشتار" (1969) ، و" يسمونه الحب " (1972)، و" لو أنبأني العراف " (1980) ، و" البعد الأخير " (1988). وتناولت تجربتها الشعرية بالبحث والدراسة كثير من الكتب النقدية..

وقد زارت لميعة عباس عمارة تونس في شهر فيفري 1986، وفي هذه الزيارة كان لقائي الأول بها وقد حاورتها حول شعرها ومحطات حياتها ، وفي مهرجان ربيع الشعر العربي بالكويت سنة 2000 كان لقائي الثاني بها والأخير. في تونس سألتها عن الشعر بالنسبة إليها فقالت: " الشعر هاجس لا يرد وطبيعة لا حرفة ، الشعر يطارد الشاعر ويلحق به، وليس شعرا ما يسعى إليه الإنسان ويتعلمه ويتكلمه ، يعني نعود إلى الغرائزيين أو إلى الخلق فنقول إن الشعر موهبة يجب أن تتوفر في الفرد ليكون فنانا وما أسهل أن ينظم الإنسان إذا تعلم العروض، وما أسهل أن يقلد الشعراء الأجانب في الشعر الحديث.. خلفية هذا الإنسان التي هي موهبة كأنها زاوية مظلمة في إنتاجه.. الشعر روح لا تصد ولا توصف يحسها المتلقي، يمرض بها الشاعر وينقل هذا المرض صحة وعافية بالكلمات.. الشعر يحتاج إلى ثقافة أيضا وإلى مراس وإلى أجواء متحفزة لقول الشعر.. لا يكفي أن يكون الإنسان دارسا أو عارفا بالتراث، وحتى لا يكفي أن يكون موهوبا لا بد من جذوة تشعل هذه الموهبة وتحرك الإحساس ليقول الشعر الرائع وإلا تكون القصائد نمطية وهادئة ومدروسة مثل كتب التاريخ الأخرى".

تقول لميعة عباس عمارة في هذا المقطع من شعرها:

" لماذا يحط المساء
حزينا على نظرتي الحائرة
وفي القرب أكثر من معجب
وإني لأكثر من قادرة؟
أنا طائر الحب
كيف اختصرت سمائي
بنظرتك الآسرة؟ "

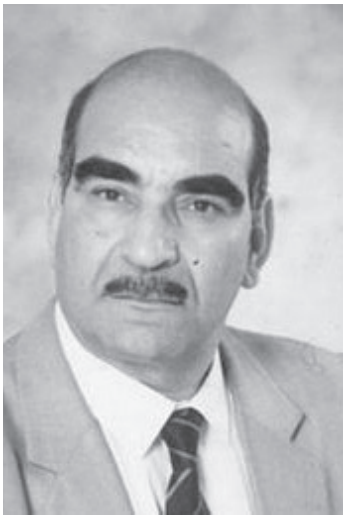

(3)

كتاب " د. محمد عابد الجابري والعقل العربي" للباحث التونسي التهامي الهاني: مشروع الجابري الفكري دعوة إلى التجديد والابتكار وتحديث الواقع

• مـن الكتب الهامة والجميلة التي صدرت مؤخرا في تونس كتاب لمؤلفـه الباحث والكاتـب التهامي الهاني عنوانـه "د. محمد عابد الجابري والعقل العربي"، أصدرته دار القلم للنشـر والتوزيع في 170 صفحة من الحجم المتوسط، متضمنا الفصول التالية:

- مسيرة الجابري.
- الثقافة والفكر قبل الجابري.
- أهداف النهضة وطموح الرواد.
- تكوين العقل العربي.
- بنية العقل العربي.
- العقل السياسي العربي محدداته وتجلياته.
- العقل الأخلاقي العربي.

ويوضـح ألتهامـي الهاني أنه تناول في كتابه شـخصية الدكتور محمد عابد الجابري ومشـروعه الفكري لأنه رمز من رموز الفكر العربي ومن " الأقلام الشـموع " خدم الأمة العربية والإسـلامية وأضاء مسيرتها، اشتغل على العقل العربي وساهم في تحريك الفكر العربي وتقدمه بمؤلفاته الكثيرة، نذكر منها على سبيل المثال هذه العناوين:

- نحن والتراث: قراءات معاصرة في تراثنا الفلسفي.
- المنهاج التجريبي وتطور الفكر العلمي.
- بنية العقل العربي: دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية.
- حوار المشرق والمغرب (مؤلف مشترك مع د. حسن حنفي.)
- الخطاب العربي المعاصر.
- المسألة الثقافية في الوطن العربي.
- مسألة الهوية: العروبة والإسلام والغرب.
- تكوين العقل العربي.
- العقل الأخلاقي العربي.

وقـد ترجمـت العديد مـن كتابات الجابـري إلى الإيطاليـة والإنجليزيـة والفرنسـية والبرتغالية والإسـبانية واليابانيـة والأندونيسـية.. وتحصل الجابري علـى جوائز عالمية كثيـرة مثل جائزة الدراسـات الفكرية في العالم العربي، تحت رعاية اليونسـكو سنة 2005 وجائزة الرواد لمؤسسة

الفكر العربي بيروت سنة 2005 والجائزة المغاربية للثقافة بتونس سنة 1999.. ورفض جوائز أخرى كجائزة صدام حسين التي تقدر ب 100 ألف دولار، وجائزة العقيد القذافي التي قيمتها 32 ألف دولار.

والدكتور محمد عابد الجابري المفكر العربي المغربي الذي عاش 75 سنة من 1935 إلى 2010 ترك بصمته في مسيرة الفلسفة والفكر العربي على امتداد السنين وكان مشروعه الفكري مثلما يقول الشاعر والأديب اللبناني عباس بيضون " مصالحة كبرى بين الغرب والعرب وبين التراث والحاضر، وبين الواقع والتاريخ"، ويقول:" إن الجابري الرجل العصامي صار له في كل جامعة وبلد مؤيدون بقدر ما صار له من خصوم ومخالفين".

ويفسر لنا التهامي الهاني أن العقل عند محمد عابد الجابري هو "العقل الفاعل" أي هو " الناشط الذهني الذي يقوم به الفكر أثناء إنجاز بحث أو دراسة.. فهو " ملكة يستطيع بها الإنسان إدراك العلاقات بين الأشياء لاستخراج مبادئ كلية وضرورية هي واحدة عند كل الناس"، كما جاء في كتابه " تكوين العقل العربي " حيث ينتهي الجابري إلى القول: " إن ما نقصد به ب"العقل العربي" هو العقل المكون، أي جملة المبادئ والقواعد التي تقدمها الثقافة العربية للمنتمين إليها كأساس لاكتساب المعرفة، أو لنقل: تفرضها عليهم كنظام معرفي".

ويعتبر الدكتور محمد عابد الجابري في كتابه " تكوين العقل العربي " أن " ذاك هو العقل العربي، أما العقل المكون فسيكون هو تلك الخاصية التي تميز الإنسان عن الحيوان أي " القوة الناطقة " باصطلاح القدماء.

وبهذا الاعتبار بمكن القول إن الإنسان يشترك مع جميع الناس، أيا كانوا، وفي أي عصر كانوا في كونه يتوفر على عقل مكون وينفرد هو ومن ينتمي إلى نفس الجماعة الثقافية بعقل مكون والذي هو عبارة عن النظام المعرفي (مفاهيم.. تصورات..) الذي يؤسس الثقافة التي ينتمون إليها".

ويوضح التهامي الهاني في استعراضه لمضامين مشروع الجابري الفكري من خلال مؤلفاته أن أسس العقل العربي في هذا المشروع تشكلت من ثلاثة عناصر هي:

- البيان أي اللغة والنحو والبلاغة وعموما الأدب والتاريخ وسائر العلوم الإنسانية.
- الفقه أي ما ارتبط بالدين الإسلامي عقيدة وشريعة وحديث وما له من صلة بذلك.
- القياس وهو جانب عقلاني يعني إبداء الرأي والاجتهاد والبحث والتنقيب.

ويبرز لنا التهامي الهاني في خاتمة كتابه إن الجابري " يثير قضية التجديد التي هي الهدف الذي ينشده بتأليفه رباعية العقل العربي".

ويضيف أن الجابري" كان يرنو إلى تحريك السواكن، وتجاوز الراهن الواهن، ومنح العقل العربي ما يساعده على الابتكار والتجديد وبالتالي تحديث الواقع".

لذلك قدم محمد عابد الجابري – حسب المؤلف – هذا الرباعي:" تكوين العقل العربي " و" بنية العقل العربي " و" العقل السياسي العربي " و" العقل الأخلاقي العربي " ونال بهذا الرباعي شرف السبق، فتهافت القراء على هذه الكتب.. ومما يلحظه المرء من الوهلة الأولى: غزارة المعارف، وسعة العلم لدى الجابري – والشمول في طرق المحاور التي حددها لنفسه في هذه الكتب – والإعتماد شبه الكلي على الموروث العربي والإسلام.

(4)

كتابان جديدان لعثمان الجلاصي الشريف

• صـدر للكاتب عثمان الجلاصي شـريف كتابان جديدان، يحمل الكتاب الأول عنـوان " في التربية المختصة والتأهيل" في 138 صفحة من الحجم الكبير، يتضمن المحاور التالية:

- التجربة التونسية في مجال رعاية المعاقين.
- الأشخاص ذوي الحاجات الخصوصية عبر التاريخ.
- التربية المختصة والتعليم المختص.
- حول المشروع التربوي الخاص.
- الفريق المتعدد الاختصاصات.
- المشروع التربوي الأفرادي.
- دور الأولياء في مجال التربية المختصة والتأهيل.
- لكل إعاقة إدماج.
- أي آفاق لتشغيل المعوقين.
- فرط الحركة المصحوب باضطراب الانتباه.
- الذكاء المتعدد (المفهوم الحديث للذكاء).
- المعلم من هو؟

ويحمل عنوان الكتاب الثاني " جواهر من الشـعر الصيني (قديما وحديثا) " ، في 126 صفحة من الحجم المتوسـط ، يتضمن مجموعة من الأشـعار الصينية ترجمها عثمان الجلاصي الشريف من اللغـة الفرنسـية إلى اللغة العربية والذي يقول عن هذه الأشـعار إنهـا " تمنح القارئ صورة عن الإبداع الشعري الصيني القديم منه والمعاصر، التقليدي والحديث ، النسائي والرجالي ، الموزون والحـر، وهـي نصوص تعود إلى عهود وحقب مختلفة من الحضـارة الصينية تمتد على أكثر من ألفي سنة".

(5)

كلمات من ذهب

• يقول الدكتور علي حرب: " بحسب فلسفة التقدم يسير التاريخ الإنساني قدما إلى الأمام، سواء على صعيد الفكر والعلم ، أو على صعيد الأبنية المادية والتشـكيلات الاجتماعية، أو على صعيد العلاقات بين البشر".

(6)

العروبة

• يقول نزار قباني:
كلما أردت أن أستريح
على سجادة العروبة
سحبوها من تحتي.

المعهد العربي للديمقراطية بتونس

ARAB INSTITUTE FOR DEMOCRACY - TUNISIA

For a Responsible Citizenship and a Good Governance

المنظمة:

تأسس المعهد العربي للديمقراطية سنة 2012 في تونس العاصمة، على أيدي مجموعة من النشطاء المدنيين والحقوقيين العرب، بهدف المساهمة في إنجاح حركة الانتقال الديمقراطي التي انطلقت في تونس وسائر البلدان العربية بفضل الربيع العربي. والمعهد هو امتداد لمركز دعم الديمقراطية في العالم العربي الذي تأسس في لاهاي الهولندية سنة 2004 من أجل مساعدة الحركة الديمقراطية العربية على تحقيق أهدافها في إزالة الأنظمة الاستبدادية وتعويضها بأنظمة ديمقراطية تكفل احترام الحريات وحقوق الإنسان وتقوم على مبادئ السيادة الشعبية والتداول السلمي على السلطة.

المؤسسون:

يعد المعهد العربي للديمقراطية (ومن قبله مركز دعم الديمقراطية في العالم العربي) كمنظمة مدنية إقليمية ودولية غير حكومية، فكرة نتجت عن لقاء نظري وعملي بين د.خالد شوكات الكاتب والناشط الحقوقي والسياسي التونسي الأصل (الرئيس التنفيذي للمعهد) و د.عبد الحسين شعبان المفكر العربي العراقي وأحد أبرز رواد الحركة المدنية والحقوقية العربية المعاصرة (رئيس مجلس الأمناء). وتضم الهيئة الإدارية للمعهد، ومجلس أمنائه، عددا من أبرز نشطاء المجتمع المدني وحركة حقوق الإنسان في تونس والبلاد العربية. يوجد المقر الرئيسي للمعهد في تونس العاصمة، ويملك فروعا في عدد من العواصم العربية.

البرامج:

منذ إعادة تأسيسه في تونس، وضع المعهد مخططا لعمله يمتد على خمس سنوات (2012 - 2017)، يندرج ضمن أولويتين اثنتين هما:

المساهمة في دعم وتنمية ثقافة "الديمقراطية التوافقية"

المساهمة في تدريب وتكوين الموارد البشرية من أجل "حكم محلي رشيد"

وقد نظم المعهد طيلة السنوات الأربع الماضية مؤتمرات وندوات وطنية ودولية في مجالي نشاطه الأساسيين بلغت خمسة (5)، فضلا عن دورات تدريبية في كافة الولايات/المحافظات التونسية الأربع والعشرين (24)، أشرف عليها محاضرون ومدربون وطنيون ودوليون واستفاد منها ما يزيد عن ألف ناشط مدني وحقوقي. كما ساهم المعهد من خلال برامجه وأنشطته، في دعم مؤسسات الحكم التونسية، برلمانا وحكومة وأحزابا سياسية، من خلال وثائق ومقترحات صدرت عن ملتقياته، لتعديل مخططات وتطوير تشريعات تهم المشروع الديمقراطي بشكل عام، والديمقراطية التوافقية والمحلية بشكل خاص.

مشاريع:

يمتلك المعهد عددا من المشاريع الاستراتيجية التي يعمل على تحقيقها، سواء في مخططه الخماسي الحالي، أو مخططه الخماسي القادم (2018 - 2023)، لعل أبرزها:

مشروع "الشبكة الوطنية للحكم المحلي" التي تطمح إلى تكوين شبكة من الجمعيات والمنظمات المدنية من أجل تمثيل أقوى للمجتمع المدني على مستوى العلاقة مع السلطة المحلية.

مشروع "المرصد الوطني لمراقبة الانتخابات البلدية".

مشروع "تونس..دار الوسط" من أجل خلق جيل جديد من القيادات التوافقية.

وللمعهد مشاريع في مجال النشر في مجالات نشاطه واختصاصه.

المعهد العربي للديمقراطية بتونس

ص.ب 47، 2078 المرسى الصفصاف

WWW.AIDINSTITUTE.COM

mail:aid.tunisia@gmail.com

Tel/Fax : +216 71 893 249

Mobile : + 216 53 77 60 77

مشروع«علوش سيدي بوزيد»

يعتبر مشروع الأغنام "البربرية' بسيدي بوزيد أكثر من ضروري للتنمية المستدامة لمنطقة سيدي بوزيد أو لمناطق ريفية مشابهة. وهو مرشح ليكون نموذجا يحتذى به في التنمية الريفية وخلق فرص العمل للشباب وكذلك الترويج لسلاسل القيم للمنتجات المحلية الزراعية. وللمشروع تاريخ طويل نسبيا حتى الوصول الى فرصة تمويله. لقد تم اختيار المشروع في نسخته الأولى من قبل البرنامج العالمي "يونس للأعمال الاجتماعية أو الاقتصاد التشاركي" في عام 2014 حيث تحصل على الموافقة المبدئية لتمويله. ولظروف تفصيلية عدل المشروع عن الموافقة. ثم تم تقديم المشروع تحت عنوان "خروف سيدي بوزيد" في ديسمبر 2016 إلى التعاون التونسي (وزارة الزراعة) للحصول على تمويل خارجي وكان في ذلك الوقت مقدما من طرف مختبر الموارد الوراثية الحيوانية والأغذية لـ INAT ، بإشراف الأستاذ. منور الجمالي كمروج للمشروع. وقد طلبت في ذلك الوقت إدارة التعاون بوزارة الزراعة من مؤسسة البحث والتعليم العالي الفلاحي IRESA و ديوان تربية الماشية وتوفير المرعى OEP في أبريل 2017 إبداء الرأي حول أهمية المشروع. وأجمعت المنظمتان بالإجماع على أهمية المشروع لقطاع الثروة الحيوانية على المستوى الوطني. وفي نفس الفترة الزمنية قدم السيد Ugo Francia ، صديق الأستاذ منور جمالي ، نفس المشروع إلى جمعية في إيطاليا TAMAT التي قدمته بدورها إلى وكالة التعاون الإيطالية (AICS) في أكتوبر 2017. في ديسمبر 2017 تمت الموافقة على تمويل المشروع من الجانب الإيطالي عن طريق TAMAT . وبعد التعديلات الإدارية المختلفة ومراحل توقيع الاتفاقيات بين الشركاء ، لم يبدأ المشروع المذكور "انطلاقته" حتى 10 جويلية 2019. ينظوي المشروع تحت مسؤولية اثنتين TAMAT من منظمات المجتمع المدني غير الحكومية. فمن الجانب الإيطالي TAMAT كمدير للمشروع. تتعامل الجامعة الخضراء مع هذه الأخيرة كنظيرتها من الجاني التونسي وتضمن التنسيق الوطني للمشروع المذكور. ومن بين الأطراف

المتدخلة في المشروع المذكور يوجد:

1. ديوان تربية الماشية وتوفير المرعى الذي يساهم في تمويل المشروع
2. مؤسسة البحث والتعليم العالي الفلاحي
3. المعهد الوطني للعلوم الفلاحية بتونس
4. الوكالة الوطنية للتشجيع على الإستثمار
5. جامعة "بروز" بايطاليا

المرحلة الأولى للمشروع شملت:

- 50 شاب و شابة من فريق "الجمال" ببلدية فايض-ولاية سيدي بوزيد
- 20 نعجة وكبش تتم إعارتهم بكراس شروط
- يتكفل المشروع بشراء الخرفان
- يتم تكوين مجمع مربي أغنام بعلامة "المشأ-علوش سيدي بوزيد"
- يتبع المجمع طريقة موحدة لتربية الأغنام
- يتكفل المشروع بالتأطير و تغذية الأمهات الحوامل و خرفانها لمدة 5 أشهر
- كما يشمل المشروع وحدات للتسمين ومعمل للأغذية ومركز للتحسين الوراثي للفحول و مسلخ ووحدة لتصنبف اللحوم.

تدوم مدة المشروع ثلاثة سنوات مع العلم أن المشروع المذكور سيتواصل نظرا لطبيعته حيث ستستثمر المرابيح الناتجة عن المشروع في اختيار منتفعين شبانا جددا وشراء اناث تربية من سلالة النجدي أو "العربي" للتوزيع على المنتفعين قصد المحافظة عليها.

www.aidtunisia.com

اصدارات المعهد العربي للديمقراطية

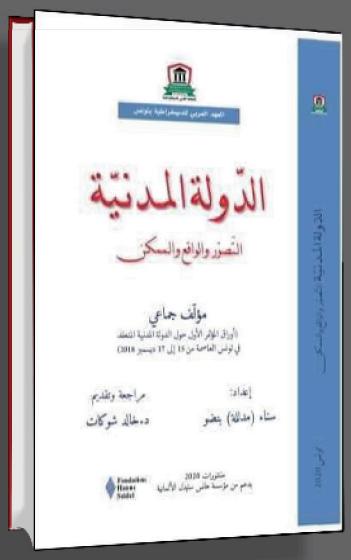

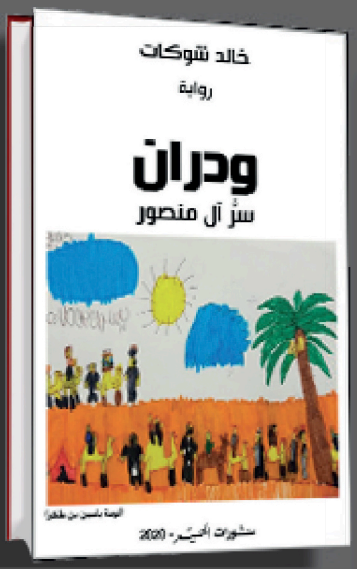

للحصول على نسخة من الكتب

الاتصال ب: aid.tunisia@gmail.com